علاقات إسبانيا القطلانيّة بتلمسان

في الثلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر م.

دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل

الأستاذ عمر سعيدان



منشورات سعيدان

سوسة - الجمهورية التونسية

نوفمبر 2002



علاقات إسبانيا القطلانيّة بتلمسان في
الثّلثين الأوّل والثّاني من القرن الرّابع عشر م.

علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان

في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر م.

دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل

الأستاذ

عمر سعيدان

منشورات سعيدان

سوسة ـ الجمهوريّة التّونسيّة.

نوفمبر 2002

منشورات سعيدان

سوسة ـ الجمهوريّة التّونسيّة

الطّبعة الأولى: نوفمبر 2002

القسم الأوّل

دراسة تاريخيّة

علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر (م)

1 ـ توطئة عامّة

عرفتْ شبه الجزيرة الإيبيريّة الإسبانيّة من أوائل القرن الثّامن ميلاديّا إلى أواخر القرن الخامس عشر حضارتين مختلفتين متقابلتين ومتنافستين، الحضارة الإسلاميّة المتطوّرة والزّاحفة منذ 711م وفتح جبل طارق والأندلس في عهد الوالي الأمويّ بإفريقيّة موسى بن نصير والحضارة الغربيّة المسيحيّة المُنغلِقة والمُدافِعة والمتربّصة والتي استطاعت استرجاع إسبانيا والقضاء نهائيّا على آخر دولة إسلاميّة بها: دولة بني الأحمر بغرناطة.

والواقع أنّ هذه القرون الثّمانية من الحضارة الإسلاميّة بإسبانيا كانت كافية لخلق فكر مسيحيّ غربيّ جديد وثقافة عقليّة نامية وقوّة عسكريّة مشحونة بالتّعصّب وحُبّ الانتقام. فالفكر التّنويريّ الإسلاميّ لم يكن كافيا لخلق جوّ من التّعايش والتّسامح بين المنطقتين والحِضارتين فكانت الحروب والغزوات

والحملات الصّليبيّة الدّائمة والتّعرّف على الفكر الإسلاميّ والنّهضة الاقتصاديّة والتّجاريّة وأسبابها ببلاد الإسلام والتّخطيط للقضاء عليها وابتزازها والاستحواذ على وسائلها. ولئن كانت المناوراتُ والخطط والتّحالفات النّصرانيّة العدوانيّة لم تفْتَأ قائمة ولم تهدأ منذ أوائل القرن الحادي عشر في الأندلس وبلاد المغرب فإنّ العَدّ التّنازُليّ وبداية النّهاية للإسلام بإسبانيا والأندلس بدأ مع واقعة زلاّقة سنة 1212م بانهزام المسلمين بزعامة الخليفة الموحّدي المأمون فيها.

فهذا الصّراع الدّائم بين الحضارتين وبين البلادين بلاد الإسلام بإفريقيّة والمغربين الأوسط والأقصى والبلاد المسيحيّة بالحوْض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط بقطلانيا وإسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا طَبع الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة في البلدين وعلائق القطلانيّين: أراغون وقطلانيا الفرنسيّة وصقلّية وجزر مُيُورقة ومينورقة وسردانيا بدول المغرب ولا سيّما المغرب الأوسط بتلمسان.

2 – إفريقيّة والمغرب وشبه الجزيرة الإيبيريّة الإسبانيّة

يقع الاثنان في الحوض الغربيّ للبحر الأبيض المتوسّط. ولا يُعتبر جُغرافيّا كلٌّ منهما امتدادا للآخر وإن كان شبه الجزيرة المغاربيّة يُفضي إلى أعماق إفريقيّة وأدغالها فسُكّانه البرابرة يختلفون اثنيًّا وبشريّا وأصلا عن الأفارقة السّود المعروفين بأهل مالي والسّودان الذين دخلوا هم أيضا في الإسلام وغزتْهم الحضارة الإسلاميّة عن طريق قوافل التّجارة والمرتحلين والمسافرين بحثا عن الملح والذّهب عبر الصّحراء ونهر النّيجر والنّيل من الحبشة والسّودان. ويُفضي شبه الجزيرة الإيبيريّة إلى جبال أراغوان والبيريني بقطلانيا وبلاد الغال[1] والفيزيقوت[2] Gaulle - Visigoths.

ورغم التّكامل الجغرافيّ والتّعايش مع حضارات

(1) Gaulle : فرنسا الحاليّة.
(2) Visigoth : سكّان فرنسا وحكّامها القدامى.

مشتركة ـ كانت لها أبعد الأثر على تكوينهم وسلوكهم ومستقبلهم: حضارة قرطاج ثمّ روما وحضارة الإسلام ـ لم يكن للمنطقتيْن شبه الجزيرة المغاربيّة وشبه الجزيرة الإيبيريّة الإسبانيّة مِراسٌ واحد ومصير واحد بل ظلّ التّنافس والتّصادم الشّرس يحرّكهما طيلة القرون الوسطى ولا سيّما القرن الرّابع عشر الذي نحن بدراسة أحداثه.

والوثائق التّاريخيّة والمعاهدات الصّلحيّة التي احتفظ لنا بها الأرشيف الأراغونيّ تشير إلى كُنْهِ هذه العلاقة: التّصادم الدّائم سياسيّا والابتزاز تجاريّا واقتصاديّا، فكانت الخطّة السّياسيّة الدّائمة منذ ظهور أوّل مملكة مسيحيّة في إسبانيا في القرن الحادي عشر تتمثّل سياسيّا في استرجاع إسبانيا للأندلس والاستيلاء على كلّ الممالك الإسلاميّة تدريجيّا وتجاريّا في بسط نفوذها الامبرياليّ وابتزاز تجارتها ومداخيلها الماليّة والسّيطرة على الطّرق التي كانت الدّول الإسلاميّة تتحكّم فيها

للوصول إلى تجارة الذّهب المزدهرة بتُخُومِ مملكة تلمسان من بلاد مَالي والسّودان وابتزازها.

وبالنّسبة لتلمسان البعيدة خمسين ميلا عن السّاحل والمعتبرة أكثر عمقا في إفريقيّا وأشدّ اتّصالا بها من المغرب الأقصى أو إفريقيّة كانت هذه التّجارة الهامّة لاحقا أي تجارة الذّهب ومقايضته بمختلف السّلع من الأسباب الأساسيّة الاقتصاديّة التي دفعت ملوك قطلانيا وأراغون إلى الاهتمام بها والسّيطرة عليها بداية من الولاية الهامّة القريبة من إفريقيا السّوداء ومن عبور الذّهب بها أكثر من غيرها من الأقاليم والممالك: ولاية سجلماسة التي تعاقب عليها لاحقا المرينيّون والحفصيّون وبنو عبد الواد وأصبحت قطبا أساسيّا في المملكة الزّيّانيّة مملكة بني عبد الواد بتلمسان.

هذا هو الإطار العامّ الذي نُسِجَتْ فيه خيوط السّياسة الأراغونيّة القطلانيّة التّلمسانيّة وأُقيمت فيه علاقات قوّة أروبيّة غربيّة ناشئة على غرب البحر

الأبيض المتوسّط ودولة ناشئة طموحة بالمغرب الأوسط بتلمسان في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر والتي كانت تستمدّ صلابتها وشموخها من عِنَادِ قبائل زناتة بالمغرب ومن أحد بطونها بني زيّان وعبد الواد، فقبائل زناتة أعطت كامل المغرب الأقصى والأوسط والأدنى أقوى دولها وأعظمَها: المُرابطيّة والموحّديّة من فرع هنتاتة الزّناتيّ: الدّولة الحفصيّة والدّولة المرينيّة والدّويلات الأخرى من بني غانية بقفصة وقابس وسجلماسة وميورقة وبني رُستم الخوارج بتاهرت. فالعصبيّة الزّناتيّة كانت قويّة متينة على أساسها قامتْ عديدُ الدّول بالمغرب وسقطت دول أخرى مثل المرابطيّة والموحّديّة.

3 ـ المملكة المسيحيّة الأولى النّاشئة في إسبانيا

تكوّنت في أواسط القرن الثّامن ميلاديّا خليّةٌ لمملكة مسيحيّة إسبانيّة صغيرة هي مملكة "أسْتُوري" من منطقة جبليّة كان يلتجئ إليها بعض الأهالي من الإيبيريّين وبعض الأشراف من "الفيزيقوت" عائلة الأمراء القدامى بجنوب فرنسا وإسبانيا المتحصّنين هنالك من الغزاة الجدد. وبدأت هذه الخليّة المسيحيّة تنمو شيئا فشيئا مفصولة عن العالم العربيّ الإسلاميّ بإسبانيا بمنطقة صحراويّة هي "أرض لا تُنبت شيئا". وهكذا وجدت نقطة سوداء داخل الاتّحاد الإيبيريّ المغاربيّ وتغلّب العامل الدّينيّ على العامل الحضاريّ والاثْنيّ البشريّ بين إيبيريا والجزيرة المغاربيّة فنشأت من ذلك التّجمّع الصّغير "الأستوريّ" مملكة مسيحيّة دفعها التّعصّب الدّينيّ والانغلاق الحضاريّ إلى التّنامي والعمل على الوقوف في وجه المجتمع العربيّ الأندلسيّ.

وفي القرن الثّالث عشر تنامت الممالك النّصرانيّة

وتوحّدت في وجه البلاد الإسلاميّة وأصبحنا نشهد عالمَيْن متقابلين: العالم العربيّ الإسلاميّ بالأندلس وشبه الجزيرة المغاربيّة من جهة والعالم الغربيّ: قطلانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا من جهة أخرى.

4 ـ استعادة إسبانيا الإسلاميّة والاستيلاء على ممالكها: La Reconquista

قبل أن تتشكّل الوحدة الإسبانيّة شهدنا نشأة مجموعة من الدّول المسيحيّة، ثلاث منها بالبلاد الإسبانيّة كانت لها مطامع في إفريقيّة وشبه الجزيرة المغاربيّة كاملة: أراغون، قشتالة والبرتغال.

منذ القرن الثّالث عشر اهتمّت قشتالة بالمغرب الأقصى وصارت ترنو إليه واتّخذت لها أنشطة به منذ عهد هنري الأوّل (1214–1217م) ودوير نجار (1217–1228م) أبناء ألفونس الثّامن العظيم (1158–1214م) أحد المنتصرين في معركة زلاّقة وأيّام حفيده سان فردينان III (1226–1252م). ولقد عمدت قشتالة إلى تعيين حرس مرتزقة بجيش الخليفة الموحّديّ وبلاطه وهو في حالة انهيار وضعف في عهد الضّعف الموحّدي[1].

(1) في عهد الخليفة الموحّدي المأمون.

ولقد بدأ الآباء الفرنسيسكيون والدّومينيكان يحرصون على التّواجد بالمغرب واستطاعوا حين رغب الخليفة الموحّديّ المأمون في الحصول على حرس مسيحيّ بجيشه وبلاطه اشتراط تأسيس كنيسة بمرّاكش تابعة لطليطلة بها جماعة من الرّهبان والآباء. وكانت أوّل كنيسة بالجزيرة المغاربيّة الإسلاميّة.

ثمّ أعدّ ابنه ألفونس العاشر العالم (1252–1284م) منذ السّنوات العشر الأولى من حكمه خطّة لإرسال حملة صليبيّة ضدّ المغرب بالتّعاون مع البابا، لكن لم يُفلِحْ واكتفى بعرض حماية وقتيّة على طانجة أو "طاويت" المرسى الصّغير على المحيط. فحاول احتلال "سَلاَ" و"أرزيلا" وخاصّة "سبتة" التي اعتبرها البابا نيابة رهبانيّة évêché. غير أنّ هذه الطّموحات والأحلام لم تتحقّق ووجدت في مملكة غرناطة عائقا كبيرا لها عملت قشتالة على إخضاعها والسّيطرة عليها شيئا فشيئا بإضعاف الدّول الإسلاميّة المجاورة وبالحصول على

امتيازات بها سواء بالمغرب الأقصى أو بتلمسان التي ستكون خاصّة من مشمولات أراغون نهائيّا.

- المملكة الثّانية التي نشأت بعد احتلال لشبونة والتي أصبحتْ قوّة على المحيط بين قشتالة والمحيط الأطلسيّ والتي التَفَتَتْ إلى المحيط وتكوّنت لها اهتمامات أخرى، ولئن رَنَتْ كذلك إلى سبتة وحاولت الاستيلاء عليها في القرن الثّالث عشر وهي مملكة البرتغال.

- أمّا المملكة الثّالثة فهي مملكة أراغون القوّة المتوسّطيّة القطلانيّة النّاشئة ذات الطّموح اللاّمتناهي الدّينيّ والسّياسيّ والتّجاريّ. كانت هذه المملكة المتكوّنة من منطقة أراغون الجبليّة الوعرة المتّخذة برشلونة ذات الأصل الفينيقيّ المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط عاصمة لها، تنظر من ناحية إلى البحر محاولة التّوسّع والسّيطرة عليه وإلى الجنوب إلى بلنسية وما وراءها، ومن ناحية السّاحل المتوسّطي للجزيرة المغاربيّة لا سيّما

الجزر الواقعة بينها وبين السّاحل الإيبيريّ، وإلى إفريقيّة والمغرب الأوسط تلمسان.

وكانت ترى في السّيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسّط بالحوض الغربيّ الوسيلة الأساسيّة والخطوة الأولى للسّيطرة على البحر والتّحكّم في أنشطته. ولذلك سارعت بوضع يدها على جزر ميورقة وطرد بني غانية منها سنة 1230م، واحتلال صقلّية سنة 1282م، والقضاء على الحكم الإسلاميّ بها، ثمّ احتلال جزيرة سردانيا سنة 1297م.

وهكذا بدأ المدّ الصّليبيّ وإعادة الاحتلال للمناطق الإسلاميّة ببلاد الغرب. ثمّ واصل أراغون مَدّه بالسّيطرة على مدن أندلسيّة هامّة: بلنسية سنة 1238م ومرسية سنة 1296م وزحفه على المريّة سنة 1309م وباسترجاعه لِصقلّية وخلافته لروجي الثّاني النّورمنديّ الذي حَمَلَ في أواسط القرن الثّاني عشر لقب "ملك إفريقيّة". وبينما كان يحكم صقلّية صار يعتبر نفسه مؤهّلا لوضع يده

على إفريقيّة كاملة والاستيلاء عليها.

وباحتلال ملك أراغون لجزر البليار: ميورقة ومينورقة فبلنسية استطاع التّحكّم في هذه الطّريق البحريّة كما يسمّيها "بْرُودَال"[1] في دراسته الهامّة: "البحر الأبيض المتوسّط" الواقعة غرب بلنسية ـ الجزائر. وهذا الشّارع المائي الذي لا تتجاوز سعته 15 كلم من جهة مليلة والمريّة و25 كلم من الجزائر إلى ميورقة. أو الممرّ المائيّ البحريّ الهامّ يشكّل في الواقع قناة مائيّة حيويّة أساسيّة لكلّ دولة تعتبر نفسها قوّة بحريّة مثل أراغون وإسبانيا المسيحيّة إجمالا، وكذلك للمغرب الأقصى الذي لا يزال يُشكّل قوّة خاصّة مع المرينيّين بعد سقوط الدّولة الموحّديّة ومن قبلها المرابطيّة. والحرص على السّيطرة على هذه القناة المائيّة البحريّة "قناة الأندلس" كما يسمّيها دوفرك (ص 26) سيكون

Braudel: La méditerranée. p. 85 (1)

مُعطًى أساسيًا في السّياسة الإسبانيّة المسيحيّة والاستراتيجيّة العمليّة للسّياسة القطلانيّة وفي المواجهة المتواصلة بين العالمين العالم الغربي الإسبانيّ المسيحيّ المتشكّل شيئا فشيئا والعالم الإسلامي الغربي الأندلسيّ المغاربيّ.

إنّ التّاج الأراغونيّ لتحقيق غرضه هذا ـ المتمثّل في السّيطرة على هذا الممرّ المائيّ الهامّ والتّوسّع في الفضاء الإفريقيّ المتوسّطيّ المغاربيّ وتحقيق مطامع الكنيسة في طرد الإسلام واسترجاعها لهذه القاعدة الهامّة وإلحاقها بإحدى مناطق نفوذها بشبه الجزيرة المغاربيّة وبإفريقيّة بالذّات ـ توخّى سياسة مرنة كانت تعتمد الحرب والسّلم، القطع والتّجارة والتّغلغل التّدريجيّ معها في شؤون الممالك المغاربيّة.

وتضاعفت هذه الرّغبة مع المغرب الأوسط بتلمسان، هذه المملكة المُفضية إلى إفريقيا والسّودان وإلى بلاد مالي وطريق الذّهب الذي كانوا اكتشفوه في القرن الثّالث عشر

عن طريق التّبادل التّجاريّ أو المقايضة المارّة بسجلماسة عاصمة "تفيلالت" و"مينام" الطّريق المؤدّية إلى الثّروة وإلى هذه الغبرة الصّفراء الغير متوفّرة بإسبانيا وأروبا بصفة عامّة.

هذا هو الإطار الذي يندرج فيه هذا البحث وتؤسّس له الوثائق الأصليّة الهامّة التي يحتفظ بها الأرشيف الأراغونيّ ببرشلونة عن علاقات التّاج الأراغونيّ مع تلمسان مملكة بني عبد الواد من بني زيّان من قبيلة زناتة الكبيرة.

5 ـ نشأة دولة بني عبد الواد بتلمسان

رأينا أنّه بعد معركة زلاّقة تراجع النّفوذ الموحّدي وتآكل في كلّ مناطق الغرب الإسلاميّ بالمغربيْن الأوسط والأقصى وبإفريقيّة. ولقد كان آنذاك يمثّل بنو عبد الواد المجموعة القبليّة القويّة من زناتة الثّائرين دوما والمستعدّين للفتنة والقتال. ولقد كان الخلفاء الموحّدون في آخر أيّامهم يُقطِعونهم خراج بعض المناطق حول تلمسان أو سجلماسة و"تفيلالت". وسرعان ما أصبحوا يُكوّنون قوّة هامّة وإمارة ناشئة في غرب الدّولة الحفصيّة حتّى المنطقة الشّرقيّة من المغرب قريبا من "وجدة". وتكوّنت شيئا فشيئا إمارة زيّانيّة تدين بالدّعوة الحفصيّة وتحت سلطتها التي لم تكن فعليّة بل روحيّة وذلك مع يغمراسن بن زيّان في سنة (1235 – 1231م) المؤسّس الفعليّ للإمارة والذي كان أوّلا مفوّضا من قبل بني عبد المؤمن والخليفة الموحّديّ إلى سنة 1239م. ثمّ خضع للسّلطة الحفصيّة ودعوتها سنة 1242م في عهد

أبي زكريّاء الحفصيّ المستقلّ عن بني عبد المؤمن والخليفة المأمون منذ سنة 1241م بعد هزيمة زلاّقة وسَمَاجِه ببناء كنيسة بمرّاكش. وبقي الأمير الزيّانيّ إلى سنة 1270م تحت الحماية الحفصيّة وإن بدأ منذ سنة 1248 يستقلّ عن الحفصيّين ويتصرّف تصرّف الملك المستقلّ مستغلاّ ظهور المرينيّين ومحاولة التّحالف معهم ضدّ الحفصيّين لكن بدون جدوى، للعلاقة الوطيدة بين الدّولتين الحفصيّة والمرينيّة، ثمّ ساعيا إلى استغلال مناورات ملك أراغون وخططه للتّحالف.

واعتبر التّاج الأراغونيّ هذه المملكة النّاشئة أكثر أهمّيّة وفائدة مبدئيّا بالنّسبة للقطلانيّين لموقعها بين المغرب الأقصى وإفريقيا ولارتباطها بإفريقيا الحقيقيّة التي كانوا يجهلونها. فاهتمامهم القديم كان مقتصرا على إفريقيّة وعلى المغرب الأقصى وسواحله. لذلك كانوا يبعثون بأميرالات البحر فالسّفراء وقادة للحرس السّلطانيّ بإفريقيّة والمغرب الأقصى، ولم يهتمّوا بتاتا

بهذا المغرب الأوسط أو بمدُنه ومراسيه: وهران ـ شرشل ـ أو بتلمسان البعيدة حوالي خمسين ميلا عن السّاحل والمهيمنة على الفضاء القارّيّ الإفريقيّ أكثر من غيرها من مدن المغرب وإن كان نصارى جنوة وبيزا ومرسيليا ينزلون بوهران ويحاولون الاتّجار بها، وكان أوّل من أحدث هذا المرسى وهران وجعله مرتبطا بالأندلس بعض البحّارة والتّجار الأندلسيّون الذين كانوا يرغبون في الوصول إلى تلمسان المركز الرّئيسيّ لدولة خارجيّة ناشئة في القرن العاشر، المتحرّر عن دولة بني رستم بتاهَرْت.

ولئن اعتاد الأندلسيّون ونصارى جنوب إيطاليا التّردّد على وهران والاتّصال عبرها بتلمسان فالقطلانيّون لم يُولوها اهتماما إلاّ في بداية القرن الثّالث عشر بعد تشكّل دولة بني عبد الواد. واتّخاذها صورة مملكة حقيقيّة. و"ماس لاتري" في دراسته "معاهدات Traités" (ص 89) يذكر أنّ البرشلونيّين بدءوا يتاجرون مع وهران قبل سنة 1232م، والسّلطنة عبد الواد لم تتّخذ

بعدُ شكل الدّولة، أمّا المراسي والمدن السّاحليّة بين الجزائر ومولوية غرب وهران، إلى جانب مرسى الجزيرة الصّغيرة رشقون، مرسى حُنين الهامّ وتَاوَنْت شرق وهران ومرسى موزغران ومستغانم وتاناس وبرشك وشرشل، فكانت قد عرفت التّجارة القطلانيّة مثل مراسي إفريقيّة. وكانت توجد بها إدراة ديوانيّة قمرقيّة حسنة التّنظيم خاصّة بوهران وحُنين مثلما هو الأمر بمواني إفريقيّة: بجاية وتونس وسوسة.

ويبدو حسب "جورج مارسي" (المخزن ص 68) أنّ التّجارة بها كانت أقلّ منها من التّجارة بالمدن المرينيّة أو الإفريقيّة. والثّروات نفسها مثل المعادن كانت محدودة، فمعدن الحديد ـ الوحيد الذي كان مستخرجا بجهة حنين ـ لم يكن له أثر كبير على النّشاط الاقتصاديّ، غير أنّ تلمسان والسّهول المجاورة لها حيث كانت المياه متوفّرة عرفت أراضيها خصوبة كبيرة وازدانت بالبساتين والحدائق وأنتجت الغلال والثّمار.

ألم تكنْ تُعرفُ في عهد رومة "بالجنان"؟ وكانت تزدحم حدائقها الغنّاء وأشجار اللّوز والخوخ والعنّاب والعنب والحبوب والغلال ممّا كان يسحر الزّائرين؟ ولئن كانت بتلمسان هذه الأرض الخصبة وهذه الجنان الفيحاء فإنّ النّشاط التّجاريّ هو الذي طبع حياتها لتجذّر التّقاليد التّجاريّة في أهلها. فكانت هذه العاصمة الزّيانيّة تعتبر مركزا قديما هامّا للتّجّار المشهورين بسمعة طيّبة تجاوزت حدود تلمسان. فقد كانوا معروفين باستقامتهم وعدلهم وشرفهم مثلما يؤكّد ذلك ليُون الإفريقي"[1]. وقد تضاعف هذا النّشاط التّجاريّ والتّبادل التّجاريّ المتأتّى عن الخطّ البحريّ المتوسّطيّ من ناحية والخطّ الصّحراويّ الإفريقيّ المارّ بسجلماسة ثمّ بمالي والسّودان بلاد السّود عامّة من ناحية أخرى. وهذا الوضع ضاعف هو الآخر في اهتمام النّصارى بالمغرب الأوسط وبتلمسان التي كانوا يعتبرونها الأرض

Léon L'Africain (1)

البربريّة الحقيقيّة المختلفة عن إفريقيّة والمغرب الأقصى.
وكانت القوافل المارّة بالصّحراء تحمل إلى تلمسان الملح والعاج وريش النّعام والصّماغ والطّيب والعنبر والنّدّ المسمّيْن بعنبر سجلماسة. ولقد تحدّث ليون الإفريقيّ عن تلمسان في القرن السّادس عشر قائلا: "إنّ مملكة تلمسان كانت تنتج قليلا غير أنّها تمثّل مركزا استراتيجيّا بين أوروبّا والحبشة أي السّودان"

هذا هو الوضع الجغرافيّ الاقتصاديّ الذي كانت تتميّز به المنطقة وهذه هي العلاقة مع العمق الإفريقيّ التي كانت تختصّ بها تلمسان وتبهر الأوروبّيين وتدفعهم إلى الاهتمام بهذه المملكة العربيّة الإسلاميّة البربريّة في المغرب الأوسط.

6 ـ طريق الذّهب

كانت تلك القوافل الواردة من الجنوب ومن الصّحراء تحمل معها دقيق الذّهب فتأتي بهذا المعدن الثّمين السّودانيّ من أعالي نهر النّيجر وأعالي بلاد السّينغال والتمبوك ومن مَالي وكذلك من بَالْهُولا المعروف ذهبُها منذ القدم بالغرب. وهذا ما يؤكّده بيراز في دراسته "العلائق بين تافيلالت والسّودان" الذي يقول: "كان المغاربة يذهبون لمقايضة الملح بالذّهب في القرن الثّالث عشر". وقد كان هذا الذّهب ثروة بعض البلاد الإفريقيّة الفقيرة في الحقيقة يتنقّل إلى الشّمال ويقع تبادله ببضائع ضروريّة مثل الملح عَبْرَ الصّحراء، وكان يتنقّل حتّى جنوب إفريقيّة وكذلك إلى تافيلالت في أقصى الجنوب الشّرقيّ من المغرب الأقصى، وهذا المدّ يصل حتّى المحيط الأطلسيّ خاصّة بجهة سَلاَ. وكان التّجّار الإيطاليّون يعرفون طريقة الوصول إليه وإلى هذا المكان بجنوب إفريقيّة.

ولئن كان الذّهب يمرّ هكذا بطرق عديدة حتّى أنّه كان يعبر خاصّة عن طريق سجلماسة عاصمة التافيلالت، غير أنّ هذه المنطقة كانت جبال الأطلس تفصلها عن المغرب الحاليّ المغرب الأقصى. وممّا لا شكّ فيه لقد كانت طرق أخرى توصل الذّهب إلى مرّاكش وفاس في مراسي ساقي وسلا وارزبلا وسبتة. إنّ طريق سجلماسة كان ينفتح قبل كلّ شيء على تلمسان فتعتبر سجلماسة بحقّ باب الصّحراء وإفريقيا السّوداء للتّلمسانيّين، وكذلك للمغاربة. كما كانت تلمسان بالنّسبة للقوافل المارّة بسجلماسة همزة الوصل لعالم البحر الأبيض المتوسّط. وكان هذا سببا كافيا جعل كلّ دول المغرب تتنافس على سجلماسة التي صارت تتحوّل من مملكة إلى أخرى، فبعد الموحّدين آلت إلى تلمسان ثمّ المرينيّين فالحفصيّين فالمرينيّين من جديد، ثمّ إلى بني عبد الواد بتلمسان. إذ أنّ السّيطرة على سجلماسة تعني السّيطرة على أهمّ طريق من الطّرق المؤدّية إلى

الذّهب في تُخوم بلاد البربر الشّرقيّة والمغرب الأوسط. ولقد سيطر عليها بعد سقوط الدّولة الأمويّة بدمشق بنُو رستم بتاهرت ثمّ الفاطميّون بالمهديّة. وفي القرن الثّالث عشر تناحر عليها الموحّدون وبنو عبد الواد ثمّ الحفصيّون سنة 1243م قبل أن تسقط سنة 1257م ونهائيّا سنة 1274م تحت السّيطرة المرينيّة.

وسواء كانت سجلماسة تحت هذه الدّولة أو تلك فتبقى تلمسان هي المركز المطلّ عليها والحاصل على الذّهب المقايض مع ذهب مالي والسّودان. وكان هذا الذّهب يقايض بالنسيج والأواني الحديديّة والقصديريّة والنّحاس والأواني البلّوريّة والطّيب والعنبر، وكانت تُشْتَرى هذه السّلعُ المتواجدة بتلمسان والواردة سواء من غرب أوروبا وأراغون أو إفريقيّة. والمغرب الأقصى بمادّة الذّهب. وكانت كلّ البلاد الأوروبيّة تفتقر إلى الذّهب وتحتاجه.

وكادتْ ممالك إفريقيا والمغرب وخاصّة محور

تلمسان ـ سجلماسة تكون مركز تموين من مادّة الذّهب أساسيًا بدُونه لا تستقيم التّجارة في هذه المنطقة ويختلّ هذا التّوازن التّعـامليّ في حـوض غربـيّ البحـر الأبيـض المتوسّط.

ولقد أثار هـذا الوضـع شَـهيّة القطلانيّـين وضـاعف مطامعهم وانبهارهم بهذا الثّراء المكـن القـادم مـن هـذا البلـد الإسـلاميّ البربريّ المتمثّـل في المغـرب الأوسـط، ودفعهم إلى التّعجيل بالسّيطرة على غرب حوض البحـر الأبيـض المتوسّـط بـاحتلال ميورقـة ومينورقـة، وقبلهـا صقلّية ثمّ سردانيا، وبالتّحكّم في هذه الطّريـق إلى البـلاد المغاربيّة المُوصلة إلى "نهر الذّهب" وإلى الثّروة عموما.

7 ـ تجارة الرَّقيق

وسرعان ما اتّضح للقطلانيّـين بـأنّ المغـرب الأوسـط مركز هامّ لتجارة الرّقيق: للحصول علـى العبيـد السّـود من إفريقيا والعبيد المسلمين، ومبادلتهم أو بيعهم. ومنـذ أواسـط القـرن الثّـالث عشـر تكـاثر عـدد العبيـد السّـود القادمين عن طريق تلمسـان وبـلاد المغـرب مـن إفريقيّـا ومـن القَطْـع بـالبحر. فلقـد كـان الأسـرى والعبيـد ـــ الواردون من إفريقيا السّوداء عن طريق تلمسان ومراسـي المغرب الأوسط بواسـطة القرصنـة والحـروب ـــ يبـاعون عادة في قطلانيا وأراغون، وبعد اسـترجاع جـزر البليـار وبميورقة أصبحوا منها يتنقّلون إلى برشلونة. فكان رعايـا ملك أراغون يتوجّهون غالبا إلى تلمسـان للحصـول علـى ما يرغبون فيه من العبيد: من السّود أو المسلمين، مثلما يوضّحه القانون الغريب الـذي أصدره التّـاج الأراغونـيّ سنة 1274م في هذا الشأن. ففي 14 ماي من هــذه السّـنة سمح ملك أراغـون لإبرخكـي أرنـس وبـيرنجي دُوسـالا

وجوم مارتي بالاتّجار في العنصر البشريّ أسرى وعبيدا من مملكة بني عبد الواد، فيمكنهم اشتراء النّساء والرّجال وبيعهم بأراغون واستيراد الرّاغبين عن طواعية في الاستيطان بأراغون بصفة عبيد. فيعمل هؤلاء التّجّار على الحصول على مسلمين من بلاد المغرب الأوسط يرغبون في الاسترقاق ومغادرة مملكة تلمسان. فلماذا كان مثل هذا التّعامل؟ وهل كان حقّا من بين المسلمين بتلمسان من كان يرغب في أن يصبح عبدا ببلاد أخرى بأراغون ؟ لماذا ؟ هل الفقر والحاجة ؟ الواقع إنّها كانت طريقة للحصول على العبيد بدون ثمن ! أمر غريب يثير الدّهشة. وهل تحقّق فعلا وهلْ كان هنالك من أهالي مملكة تلمسان من قبل التحوّل إلى أراغون كعبدٍ للحصول على الجنسيّة مقابل فقدان الكرامة والحرّيّة ؟!

8 ـ دور الجاليات اليهوديّة

كان اليهود يعيشون في البلاد الإسلاميّة المغاربيّة وبالمغرب الأوسط في أمن ويعملون في اطمئنان وحرّيّة. يعاملهم المسلمون على أساس التّقاليد التي أرستها العهدة العُمَريّة بالقدس ـ التي أعطاها سيّدنا عمر بن الخطاب عند فتحه بيت المقدس لليهود والنّصارى على السّواء ـ. ولقد كان بتلمسان عدد محدود من اليهود. وكانوا نشطين يساعدون القطلانيّين على تعاطي التّجارة: تجارة الذّهب والعبيد. فعن طريقهم كان القطلانيّون يحصُلون على ما يريدونه في القرن الثّالث عشر، إذ كانت مجموعة قليلة من اليهود الأغنياء والرّأسماليّين تعيش ببرشلونة وتُقرض الملك ما يحتاجه من أموال وتُشجّعه على التّعامل مع يهود تلمسان، بل تكلّفهم بمقايضة الذّهب الوارد على تلمسان ببضائع المملكة. وبعد استرجاع أراغون جزرَ البلْيَارْ حَرِصَ التّاج الأراغونيّ على التّعامل مع يهود البلْيار النّشطين والذين

كانوا يتنقّلون إلى إفريقيّة وتلمسان ويربطون علائق تجاريّة مع التّجّار المسلمين بالبلدين.

وكان الملوك المسيحيّون يتّخذون بعض هؤلاء اليهود مُمثّلين لهم وسُفراءَ لدى سلاطين تلمسان: فألفونس الثّالث وجاقمو الثّاني ملكَا أراغون استعملا اليهود أبْراهِمْ وسَامْوَال بن غلال وبنْدافي وسَامْوَال أعوانا مفاوضين بالمغرب الأقصى وتلمسان وغرناطة. وكذلك كان الشّأن لملوك ليون وقشتالة. فلقد اتّخذوا سفراء يهودا. ويبدو أنّ البابا في 4 نوفمبر 1220م "البابا هَنُورْيُوس الثّالث" عاتب على ذلك ألفونس التّاسع ملك ليون. وفي سنة 1265م أرسل جاقمو الغازي ملك أراغون يهوديّا ميورقيّا "أستروش بون سنيور" كعون سرّيّ ليتلصّص على حقيقة الثّوّار بمرسية.

كان اليهود ـ بحكم صلتهم بالمسلمين ـ يجيدون دورهم ويحسنون نصحَ الملوك المسيحيّين وخدمتهم، تجارة أو سياسة وأحيانا محاسبين وقادة عسكريّين.

فحسبما تؤكّده وثائق الأرشيف الأراغونيّ كان الورّاق دَافيد حابا اليهوديّ يبيع السّجلات الضّروريّة للمحاسبة الملكيّة لألفونس الرّابع ملك أراغون. وكان الرّبّي "أبراهِم" والرّبّي "نُبْديا" من يهود سرقوسة يعملان محاسبين بالخزينة الملكيّة. وأمّا في عهد الملك بترو الثّالث فكان الإخوة اليهود "ابن مناس" يشتغلون كقادة بجيش التّاج وفتحوا باب التّجارة الكبيرة في القموح. ومن اليهود من كان يشتغل مستشارا أو طبيبا خاصّا بالملك مثل "يوسف بن طراق". وكان من بينهم من يشتغل بتهجير المسلمين من ميورقة إلى بلاد الإسلام أو بلاد النّصارى لتنصيرهم أو استرقاقهم. وكان دخول اليهود حرّا لبلاد أراغون لكلّ هذه الخدمات لكن مقابل معلوم يدفعونه يقارب 12 سورديّا برشلونيّا. وكان تنقّلهم بين البلاد المغاربيّة وميورقة دائما. وكانوا تخصّصوا في القرن الثّالث عشر في تهجير مسلمي ميورقة ـ بعد إعادة احتلالها ـ وتسهيل ترحيلهم إلى بلاد المغرب

وإلى تلمسان خاصّة. وكان هذا العمل مُربحا ويشجّعهم
عليه التّاج الأراغونيّ. وكان عددهم ببلاد التّاج عامّة
يبلغ ستّين ألفا ـ حسبما يؤكّده المؤرّخ "فيسانس فيفس"
في "استُورْيَا الاجتماعيّة والاقتصاديّة ببرشلونة" (ج 2.
ص 56) ـ. بينما كان عدد السّكّان القطلانيّين ببلاد
التّاج مليون نسمة.

ولئن كان اليهود يلْقون هذا الاهتمام وهذه العناية في
بلاد التّاج لهذه الخدمات الدّقيقة والمفيدة جدّا التي
كانوا يقدّمونها فلم تكن دائما معاملتهم حسنة مثل
المعاملة الحرّة التي كانوا يلقونها بالبلاد الإسلاميّة،
فكانوا يُطالبون بوضع شارة خاصّة أو لباس زيّ خاصّ
يشير إلى هويّتهم اليهوديّة، ممّا يشير إلى أنّ اندماجهم
الاجتماعيّ بالمجتمع القطلانيّ كان مستحيلا أو منعدما
تقريبا. لولا هذا الدّور التّجاريّ والسّياسيّ الذي أتقنوه
وأدّوه بكفاءة ـ حسبما تشير إليه مختلف الوثائق ـ غير
أنّهم كانوا دوما يستدرّون من هذه الخدمات أكبر الفوائد

وأضخم الثّروات. وكانوا يعيشون في مجموعات يُسَمّي
على رأسها الملوك أشرافا يحملون اسم الفقيه، مثلما هو
الشّأن عند المسلمين. ويشير اللّقب إلى شرف الرّئيس
وعلمه ونبله. وحسبما ورد في الجزء الثّاني في الأرشيف
الأراغونيّ (ص 84 رقم 1117)، كان هذا الفقيه وحده
المسموح له بعدم لباس الشّارة الخاصّة أو الثّوب المميّز.
أمّا بقيّة اليهود فكانوا مطالبين بوضع هذا الثّوب المميّز
وذلك في كلّ مدن التّاج الأراغونيّ. ولقد صدر في 11
أفريل سنة 1284م مرسوم ملكيّ يعفي الفقيه سامْويل من
وضع اللّباس المميّز (جلباب مستدير)، ونجد مثل هذه
الإشارة في السّجلّ (رقم 43 عدد 110) من الأرشيف
الأراغونيّ. وكانت لهؤلاء بإذن من الملك ومجموعة
الرّهبان الدّومينيكان شبه مدارس خاصّة تعلّم العبريّة
لحاجة التّاج لهذه اللّغة في بعض الحالات
والاستعمالات. وذلك في برشلونة وبلنسيّة لكتابة بعض
العقود في بلاد المغرب والاطّلاع على بعض الكتب

وترجمتها. وكان يهود تلمسان يتمتّعون بمكانة كبيرة لدى التّاج للمعلومات والأخبار التي كانوا يُسرّبونها ويحصلون عليها. ففي سنة 1274م حين حصلت القطيعة بين تلمسان والتّاج الأراغونيّ ورفض سلطان تلمسان إمضاء المعاهدة ـ حسب الشّروط الأراغونيّة ـ سمح ملك أراغون جاقمو الغازي بالقَطْع والقرصنة ضدّ تلمسان ورعاياها. وأذن باستثناء يهود تلمسان الذين كانوا يركبون البحر والذين يريدون السّفر للاستقرار ببلادها للخدمات الجليلة التّجاريّة والماليّة والسّياسيّة التي تفانوا في تقديمها للتّاج. وكان هؤلاء اليهود لا يتوقّفون عند المناطق السّاحليّة من برشلونة وبلنسيّة وميورقة إلى المراسي وتلمسان فحسب بل حاولوا النّفاذ إلى أعماق البلاد البربريّة إلى بسكرة وتوغرت وورغلة وجنوب تونس وجربة وقابس وطرابلس وإفران بالمغرب، وخاصّة إلى تفيلالت ومركزها سجلماسة: باب إفريقيا السّوداء والصّحراء.

بل وهكذا تمّ الرّبط بين القطلانيّين وبلاد التّاج الأراغونيّ ومعدن الذّهب وطرقه عن طريق يهود تلمسان. ونشأت لذلك جاليات يهوديّة بمدن هذه الطّرق الموصلة إلى الذّهب من تلمسان وسجلماسة وتُمْبُوكتُو إلى تُومبوك، فنستطيع أن نقول إنّ هذه الطّريق ـ طريق الذّهب ـ التي كان يرنو لها القطلانيّون طريق يهوديّة. ولا ننسى أنّ الطّبيعة اليهوديّة تميل إلى المعدن الأصفر وتريد أن تكون ثروتها ذهبا وكلّ ما تحصل عليه من تجارتها من هذا المعدن الثّمين الأصفر، لذلك نَشِطَتْ هذه الجالية اليهوديّة سواء ببلاد التّاج أو بتلمسان وعملت على تنشيط التّجارة بالمنطقة ومقايضة مختلف البضائع ذهبا.

وعلى كلٍّ فإنّ صناعة المعادن الثّمينة ذهبا أو فضّة كانت دوما من اهتمامات اليهود، إلى جانب سياسة القروض وما يتّصل بها من فوائض وربًا.

والملاحظ أنّ الكثير من هؤلاء اليهود كانوا يعتبرون

من أصل ميورقيّ حتّى وإن كانوا مقيمين بتلمسان.
وكان حاكم ميورقة يعتبرهم دوما رعايا ميورقيّين لما يدرّونه عليه من فوائد جمّة ماليّة وسياسيّة واستراتيجيّة للتّغلغل أكثر فأكثر في شؤون الدّولة الزّيّانيّة وديوانتها النّشطة. ولذلك كانت أوّل هيمنة على القمرق التّلمسانيّ لميورقة وأوّل إيتاء وُظّف على البضائع القطلانيّة لفائدة القطلانيّين كان لميورقة. وكان للجالية اليهوديّة دور نشيط في ذلك. وسرعان ما نشأ تنافس بين القطلانيّين أنفسهم للسّيطرة على الدّيوانة التّلمسانيّة بين الميورقيّين وأراغون. وظلّ يهودُ ميورقة الرّعايا الأنشط والأكثر مكانة ببلاد التّاج الأراغونيّ لهذا الدّور الاقتصاديّ والسّياسيّ الهامّ. وممّا يؤكّد هذه المكانة الامتياز الخاصّ الذي حصل عليه يهودُ ميورقة حين كانوا يُؤْسِرون أو يشترون أسرى مسلمين كعبيد. فكان من المعروف عليهم أن يحرّروا هؤلاء العبيد حين يقبلون اعتناق المسيحيّة وترك الإسلام. وهذا ينطبق على السّادة النّصارى

اليهود. لكنّ هؤلاء استطاعوا الحصول على امتياز لا مثيل له ولم يكن يتمتّع به حتّى القطلانيّون النّصارى أنفسهم، تمثّل في السّماح لهم بالإبقاء على عبيدهم المسلمين حتّى وإن تنصّروا. وهو ما كان يخالف تعليمات البابا نفسه. وهذا يشير إلى هذا الدّور الخطير الذي استطاعوا أن يلعبوه بأراغون وتلمسان. وكان هؤلاء السّماسرة والتّجّار اليهود الميورقيّون ـ حسب نصّ هامّ وصل إلينا بالأرشيف الميورقي بتاريخ 1327م (Reales ceoulas ج 7 ص 153–154) ـ يتعاملون في الدّيار التّلمسانيّة على هذا الأساس: يأتي التّجّار اليهود بالبضائع ويسلّمونها إلى مسلمين يعيشون في جهات بعيدة عن تلمسان وعن السّاحل، ويحملها هؤلاء المسلمون بدون أن يدفعوا ثمنها. ثمّ يعودون بعد مدّة، ويعطون للباعة الإسرائيليّين ـ أصحاب البضائع ـ قيمتها فضّة أو بضائع أخرى ثمينة أو تحفا. فنرى كيف كانت السّلع اليهوديّة موزّعة ومفوّضة في أماكن مختلفة

من المغرب الأوسط. وكان هؤلاء التّجّار متّصلين ومتعاقدين مع يهود آخرين بميورقة ويتولّون ترويج بضائعهم.

كانت الحركة إذن دائبة ناشطة دائمة، لذلك نراها تتطلّب استقرارا وأمنا بين الدّولتين ميورقة والتّاج وتلمسان. فالحرب تعني الإفلاس للجميع. لذلك طغت الحسابات والمصالح التّجاريّة على المصالح والمطامع السّياسيّة ولو إلى حين. وهنالك حدث آخر – يجدُرُ ذكره – يؤكّد لنا صلابة هذه العلاقة القطلانيّة المغاربيّة التّلمسانيّة من أجل طريق الذّهب تمثّل في حرص جاقمو الغازي الذي أصبح ملك ميورقة على استمالة الجالية اليهوديّة القاطنة بتلمسان أو ميورقة نفسها وخاصّة جالية سجلماسة النّاشطة والمتحرّكة. ففي سنة 1247م، قبل 20 سنة من أن يصبح حاكم ميورقة، أعلن حمايته عائلتين يهوديّتين بسجلماسة كانتا تضمّان ستّة عشر شخصا وسماحه لهما بالقدوم إلى بلاد التّاج، وإلى كلّ

يهود سجلماسة بالهجرة إلى بلاده، والإقامة بها إن كانوا يرغبون في ذلك. وسمح لهم بالإقامة في ميورقة أو بلنسية أو برشلونة حسب اختيارهم. فلقد تفطّن هذا الملك الطّموح إلى الدّور الهامّ الذي يمكن أن يلعبه اليهود، وإلى هذه الطّريق المحوريّة الأساسيّة المؤدّية إلى الذّهب: برشلونة، ميورقة، تلمسان، سجلماسة. لقد شعر بضرورة بناء علاقة بينه وبين يهود تفيلالت بأعماق الصّحراء البعيدين عنه بأكثر من ألف وخمسمائة كيلومترا. وتواصلت هذه السّياسة المشجّعة لليهود والمستعملة لهم مع ابنه بترُو الثّالث الذي اعتُبر عهدُه العهد الذّهبيّ لليهود ببلاد التّاج الأراغونيّ.

وهكذا نرى من خلال كلّ ما تقدّم أنّ سياسة الامتيازات الحاذقة التي اعتمدها التّاج الأراغونيّ مع الجاليات اليهوديّة كانت الخطّة الاستراتيجيّة الامبرياليّة التي وضعها للتّغلغل سلميّا في المغرب الأوسط، قبل أن تتّبع للتّغلغل في كلّ القارّة ومحاولة السّيطرة على شبه الجزيرة المغاربية كاملة.

9 ـ طبيعة سكّان بلدان المغرب وعوامل قوّتها وضعفها

تميّزت حقّا بلاد المغرب جغرافيّا من المحيط إلى خليج قابس بتنوّعها واختلاف عنصرها البشريّ من البربر إلى العرب، ومن سكّان الجبال إلى سكّان السّهول، ومن الرّحّل المتنقّلين إلى الحضر المقيمين. لكنّ هذا التّنوّع والتّوزّع لم يخلق الطّباع المتنافرة والعادات المتباعدة، بل كانت الحياة والتّقاليد متقاربة وبالتّالي عامل توحيد القبيلة واستصراخ عند الشّعور بالخطر. وكان الإسلام يمثّل حقائق ثابتة موفّرة الحماية والمناعة. لكن لا يمكن إنكار مدى استغلال الأعراب والنّصارى المجاورين والمناوئين والمتربّصين بالإسلام والمسلمين بالجزيرة المغاربيّة للتّنافس القبليّ والتّباين العشائريّ ومحاولاتهم المتكرّرة لخلق الفتن وإثارة القبائل بعضها ضدّ بعض، والدّول المتنافسة لإضعاف بعضها بعضا وتهرئة قوّتها العسكريّة وقدراتها الهجوميّة: نجد زناتة

بني عبد الواد ضدّ زناتة بني مرين، والحفصيّين ضدّ بني زيّان، والمرينيّين ضدّ عرب إفريقيّة، والموحّدين وملوك الأندلس وغرناطة. فالانتماء القبليّ ساعد على تغلغل القوى الأجنبيّة الامبرياليّة في فترات مختلفة من تاريخ البلاد، لكن خاصّة في عهود الضّعف والتّشرذم والتّعصّب العشائريّ.

ويجدُر بنا ـ ونحن نذكر عوامل القوّة والضّعف لهذه المنطقة المغاربيّة في تاريخها العربيّ الاسلاميّ القويّ والضّعيف ـ أن نلاحظ أنّ العمارة البحريّة وتجهيز الأساطيل كان غالبا من أسباب ضعفها. إذ لم تكن لها أساطيل قويّة، ولم تزدهر بها صناعة المراكب والسّفن مثلما كان الأمر في شبه الجزيرة الإيبيريّة والسّواحل القطلانيّة. فالخشب لم يكن متوفّرا بكثرة ولم تشيّد دائما وأبدا أحواض بناء السّفن في عديد المراسي. صحيح إنّ المستنصر بالله الحفصيّ اهتمّ بالموضوع وبنى حوضا كبيرا للسّفن بتونس وسوسة، وكذلك فعل أبو حمّو بوهران وابنه أبو تاشفين بحنين والجزائر وأبو يوسف

سلطان فاس والسّلطان أبو الحسن موحّد المغرب ببعض مراسي المحيط الأطلسي لكن بقيتْ هذه الأساطيل ضعيفة غالبا، فكان السّلاطين يلجؤون إلى كراء المراكب والأجفان والالتفات إلى الأعداء النّصارى عامّة والقطلانيّين خاصّة. ولا ننسى أنّ الطّرق البحريّة التّجاريّة وحتّى طريق الهند وطريق التّوابل والقموح والحبوب كلّها كانت تحتاج إلى المراكب، حتّى في فترات السّلم. ولقد احتلّت هذه النّقطة الهامّة مكانة ودورا في السّياسة المغاربيّة داخليّا بين الدّول المغاربيّة فيما بينها وفي علاقاتها بدول الحوض الغربيّ للبحر الأبيض المتوسّط وبالدّول القطلانيّة خاصّة بإسبانيا وإيطاليا بصقلّية وبقيّة جزر المتوسّط في القرن الرّابع عشر ميلاديّا. ولعلّ هذه الحاجة للجفن القطلانيّ وللمراكب البحريّة في تجارتها وأمنها كان سبب مرونة هذه الدّول وضعفها في آن واحد في علاقتها المغاربيّة القطلانيّة الإسبانيّة.

10 ـ العامل الدّينيّ وتوزّع الرّهبان ببلاد المغرب

كان الهدف الدّينيّ في السّياسة الأراغونيّة القطلانيّة هدفا استراتيجيّا وقاعدةً أساسيّة في سياسة التّاج الأراغونيّ. فبعد استرجاع ميورقة والاستيلاء عليها وطرد المسلمين منها واصل أراغون المساهمة في كلّ المخطّطات التي وضعها البابا بروما والملك فردينان قدّيس قشتالة لإعادة احتلال بلاد الأندلس وإفريقيّة ومراسي المغرب الأقصى والأوسط. لكنّ التّركيز على النّاحية الدّينيّة كان تقريبا منعدما. وقد صبّ القطلانيّون انشغالهم على النّواحي الماليّة والتّجاريّة والسّيطرة على أهمّ الموانئ التّجاريّة: بجاية وتونس والمهدية ووهران والجزائر وطنجة وسبتة و"الجزيرة" وجبل طارق. لكنّ هذه الخصوصيّة في سياستهم لم تمنعهم من الاهتمام بالنّاحية الدّينيّة في سياستهم التّجاريّة باشتراط بناء الفنادق الخاصّة بالمسيحيّين مع

تشييد الكنائس ووجود الرّهبان لتوجيههم ومساعدتهم روحيّا ودينيّا. فنتج عن ذلك وجود عدد كبير من الرّهبان ورجال الدّين لتسيير تلك المعابد الدّينيّة والإشراف على القدّاس. بل لقد وجدت بعض المجموعات النّشطة والمبشّرة والمؤثّرة مثل رجال كنيسة مرّاكش ـ في عهد المأمون الخليفة الموحّدي ـ والكنائس والمرجعيّات الدّينيّة والتّبشيريّة في عهد ابن اللّحيانيّ الحفصيّ بتونس وقرطاج وبجاية وبونة. ونعلم الدّور الذي قام به "رامون لول" لتنصير أبي يحيى اللّحيانيّ مغتصب السّلطة بتونس والواعد بالتّنصّر، وكان الأمر كذلك بالنّسبة إلى السّلطان ابن أبي ضربة حفيد اللّحيانيّ بالمهدية ولأبي تاشفين الزّيّانيّ بتلمسان.

فكان لرجال الدّين والرّهبان الذين أمكن لهم الانتصاب ببلاد المغرب: بإفريقيّة وتلمسان ومرّاكش دور في الاستراتيجيّة التّبشيريّة والتّنصيريّة وهي خطط السّيطرة والاحتلال. لكن كانتْ هذه السّياسة هادئة

خيوطها تُحَاك بروما وقشتالة وبرشلونة وميّورقة ووسائلها تتدعّم في الخفاء، لكن في دواوين الدّولة والبلاط السّلطانيّ عن طريق الجنود المسيحيّين المرتزقة وقادتهم النّصارى، الشّخصيّات المؤثّرة سياسيّا واستراتيجيّا وروحيّا ومصيريّا في حياة الدّول المغاربيّة.

11 ـ الفيالق المرتزقة والفرسان القادة والقناصل والسّفراء

تميّزت العلاقات القطلانيّة المغاربيّة عموما في الدّول المغاربيّة الثّلاث: إفريقيّة وتلمسان والمغرب الأقصى بعامل دفاعيّ أمنيّ اجتماعيّ، كان له أبعد الأثر في الوضع السّياسيّ والبشريّ، كان يتمثّل في إقدام السّلاطين في كلّ الدّول على تأجير المرتزقة القطلانيّين في جيوشهم وفي الحاميات الشّخصيّة والبلاطيّة. فكان الحرس الحامي للسّلطان وبيته وعائلته من المرتزقة، وكانت ألويةٌ من الجيش أو الأساطيل تتكوّن من المرتزقة، وكان الملوك النّصارى القطلانيّون هم الذين يتولّون بأنفسهم تأجير مرتزقة الحرس، بل تعيين قادتهم واشتراط ذلك في كلّ عقد تسويغ. وكان السّلاطين يطالبون بهؤلاء المرتزقة ويتّخذونهم حرسا لهم، وأحيانا كانوا يختارونهم من بين النّصارى والتّجّار الذين يتمّ أسرهم عند القطع وفي الإغارات والحروب. وبهذه الطّريقة أصبحتْ جالياتٌ من العساكر المسلمين بالبلاد المغاربيّة لها علاقات مع بقيّة الأقوام والعاملين بمختلف الحرف والمهن وخاصّة بالتّجارة. وصار لهم تأثيرهم ودورهم ووساطاتهم، بل انصهر بعضهم في المجتمع المغاربيّ، وحدثتْ مصاهرات واختلاطات بشريّة لعبت دورا في مختلف الفتن والحروب والتّحالفات الرّسميّة مع الأمراء والحجّاب والوزراء. وكثيرا ما كانت مؤامرات البلاط ضدّ السّلاطين والحجّاب تتمّ بواسطة هذا الحرس القطلانيّ المسيحيّ وبتنفيذ من القائد النّصرانيّ الذي كان يأتمر غالبا بأوامر ملك أراغون وأحيانا أخرى بأوامر الكنيسة، كما حدث في عهد السّلطان يحيى اللّحيانيّ وتاشفين بن أبي حمّو سلطان تلمسان أو الخليفة المأمون الموحّدي الذي كان أوّل من سمح ببناء كنيسة في مرّاكش وتعيين رهبان بها. وكان من بين هذا الحرس المسيحيّ القادة والفرسان والرّماة والمشاة بالمخزن، وكانوا موزّعين

بمختلف المدن والمراسي ومكلّفين مع الجنود البرابرة والعرب بإخماد الفتن والثّورات. لذلك كانوا يجوبون البلاد طولا وعرضا. وكان هؤلاء يعيشون نمط حياة المسلمين عامّة مع السّماح لهم بشرب الخمرة مع ما يترتّب عن ذلك من مشاكل وانتهاك حرمات وعلاقات مريبة.

- القائد والقائد الأعلى

كان لقب القائد يُسند لكلّ من يُشرف على فيلق من فيالق الحرس مع مرتّب هامّ يتجاوز بكثير مرتّب عسكر الحرس. ويسند لقب القائد الأعلى "Alcayt Mayor" لزعيم القوّاد وكلّ من يفرض نفسه من بين القوّاد بخدماته وأعماله في الفتن والحروب. ويتمّ أحيانا تعيين قائد أعلى لكلّ أصيلي بلد واحد للقطلانيّين الميورقيّين، وآخر لقطلانيّي برشلونة، وبالنّسبة للمرينيّين قائد أعلى للحرس أصيلي قشتالة، وآخر للقطلانيّين أو للصقليّين بالنّسبة لتونس. والملاحظ أنّ زعيم الجميع كان عادة

قطلانيّا يعيّنه ملك أراغون نفسُه. ففي تلمسان كان جاقمو اللّقيط بن جاقمو الثّاني هو القائد المسؤول الأعلى بالنّسبة لجميع مسيحيّي السّلطنة، في فترة من الفترات. وكان هذا القائد العامّ الأعلى ينصّب نفسه رئيسا لكلّ النّصارى وقاضيا لهم يبتّ في شؤونهم ويفصل مشاكلهم. فكان لهذه الشّخصيّة إذن نفوذ واسع على مواطنيه وعلى السّلطنة نفسها وأحيانا في توجيه السّلطان وتجديد سياسته إذ غالبا ما يكون مستشاره ولا سيّما إن كان صديقه وجليسه مثلما كان الأمر بالنّسبة لتاشفين الزيّاني الذي كان صديقا لقائد الحرس منذ صباه فاتّخذه مستشاره واستعان به على قتل والده أبي حمّو والانفراد بالحكم. وكان القائد شجّعه على ذلك وزيّن له الأمر. وكان هذا القائد الأعلى يتقاضى أجرا وحقوقا على كلّ شأن يقضيه أو قضيّة يفصلها أو أمر يبتّ فيه للقطلانيّين.

والملاحظ أنّ هذه المهامّ كان يقوم بها القنصل أو

السّفير بالنسبة لإفريقيّة. إذ الفصل في شؤون القطلانيّين والتّجار القطلانيّين والمسيحيّين كان يعود للقنصل وحده في إفريقيّة الحفصيّة أمّا في تلمسان فلقد استطاع القائد الأعلى أن يحصل على هذا الامتياز ويصبح شخصيّة مرموقة ومؤثّرة. وكان أحيانا يخدم بإخلاص وتفان قضيّة سلطانه كما حدث لأبي تاشفين الزّيّانيّ الذي وجد في قائده المستشار المخلص واليد الطّويلة القاطعة. وغالبا ما يكون هذا القائد مدسوسا ومتآمرا على السّلطان ويدور مع الرّياح وحسب أهواء ملك أراغون وأهدافه.

أمّا السّفير فهو شخص ذو مستوى أعلى وأدقّ وينطبق على رُسُل ملك أراغون الذين يناقشون بنود المعاهدات ويبرمونها وغالبا يكونون من المقرّبين من الملك والخادمين المخلصين لطموحاته وامبرياليّته الاقتصاديّة والسّياسيّة وأغراضه الدّينيّة البعيدة. وكانت صلاتهم تتمّ مباشرة مع السّلاطين وحجّابهم ويعتبرون بحق النّاسجين خيوط السّياسة القطلانيّة والعلاقات المغاربيّة القطلانيّة.

12 ـ التّجارة والمعاليم القمرقيّة

إنّ كلّ النّشاط السّياسيّ والدّيبلوماسيّ مرتبط بسير الحياة التّجاريّة وأنشطتها. والدّور المباشر للقناصل والقواد والقطلانيّين كان يتمثّل في الإشراف على هذا النّشاط وتنميته وفصل قضاياه. فهذه الحياة تتحكّم في تطوّر العلائق المغاربيّة ـ القطلانيّة ونوعيّتها. ولقد سُنّتْ قوانين وترتيبات لتسهيل هذا النّشاط وتحديد كيفيّة دخول البضائع وخروجها، وكانت جلّها توجد بالمراسي إلى جانب التّجّار القطلانيّين أنفسهم. لكنْ هذا لا يعني انعدام وجودهم داخل مدن البلاد المغاربيّة فالتّجّار القطلانيّون وُجدوا كذلك بالقيروان وقفصة وفاس والمنصورة وتلمسان وسجلماسة.

أمّا القوانين الدّيوانيّة فهي تقريبا واحدة بتلمسان وإفريقيّة وفاس وتتمثّل في دفع عشر قيمة البضاعة للدّيوانة وتدفع نقدا وأحيانا بضاعة وتدفع عادة بعد بيع البضاعة كما يوضّحه الفصل الثالث والعشرون من

المعاهدة القطلانيّة الإفريقيّة ببلنسية سنة 1271م.

أمّا الدّراهم التي كانت تجلب وتدخل البلاد فتدفعُ خمس بالمائة كمعلوم قمرقيّ سواء كانت ذهبا أو فضّة. وغالبا لا يُسمح بتصديرها إلاّ بعد إثبات دخول قيمتها بضاعةً فعليّة.

والملاحظ أنّ هذه القوانين والمعاليم لا تنطبق على القمح والحبوب الممنوع تصديرها ولا يمكن السّماح بتصديرها إلاّ بأذون ورخص خاصّة تشير إليها المعاهدات وعقود الصّلح: مثل معاهدتي سنة 1313م بين تونس وميورقة وسنة 1314م بين إفريقيّة وأراغون.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال هو تحريم الكنيسة والدّول المسيحيّة تصدير القمح إلى البلاد الإسلاميّة[1]. أمّا الزّيوت فيبدو أنّه كانت فيها

(1) الأرشيف الأراغونيّ. دفتر 555 صندوق 23 رقم 5271 ـــ دوفرك: دراسته ص 521.

تسهيلات خاصّة توريدا أو تصديرا، مع معلوم ديوانيّ ضعيف، مثلما نصّت عليه معاهدة أراغون وإفريقيّة في واحد ماي سنة 1323م[1] في فصلها الرّابع والعشرين.

وكانت تتمّ المعاملات بين التّجّار القطلانيّين والمسلمين أنفسهم في المراسي وأحيانا يتمّ البيع بالدّلالة بواسطة الدّلاّل المتخصّص والقانونيّ بالميناء. وهذا يشير إلى عمق هذه الحركة التّجاريّة واندماجها في شرايين الحياة الاقتصاديّة بالبلاد سواء المغاربيّة أو القطلانيّة.

ولحسن سير هذا النّشاط التّجاريّ نلاحظ ختاما توفّر المرونة الكافية في المعاملات والقوانين وحرص الجميع على تذليل كلّ الصّعوبات والمشاكل. إذ أنّه وإن كانت توجد طموحات وأهداف توسّعيّة مقنّعة للملوك القطلانيّين فالهمّ الأساسيّ للجميع هو الاستثراء والرّبح. ونستطيع أن نؤكّد أنّ هذا التّكالب على الرّبح كان

(1) تاريخ برونشفيق: "بلاد البربر الشّرقيّة: La berberie orientale. T2. p. 242.

حبْلَ النّجاة لهـذه السّلطنات والممـالك المغاربيّـة، بـل العرقلة الأساسيّة في وجـه التّوسّع القطلانـيّ والزّحـف الصّليبيّ الكنيسيّ المتحامل دوما علـى الإسلام في شبه الجزيرة المغاربيّة: بإفريقيّة وتلمسان والمغرب الأقصى.

1.1 - خاتمة عامّة واستنتاجات

إنّ المراسلات التي بين أيدينا لسلاطين تلمسان مـن بني عبد الواد مع ملـوك أراغـون القطلانيّـين ومختلـف الوثائق التي احتفظ بها الأرشيف الأراغونيّ سواء كانتْ رسائل أو عقود صُلح والتي لم تكـن تختلـف في روحهـا وقضاياها عن الوثـائق والرّسـائل التي نجدهـا في نفس الأرشيف باللّغة القطلانيّة وبعضها بالعربيّـة والقطلانيّـة سواء الخاصّـة بـالحفصيّين بإفريقيّـة أو الـمرينيّين بالمغرب الأقصى تشرحُ العلائق التي كـانت قائمـة بـين هذه الدّول وتُعرّي الأساليبَ والمُراوغـات المعتمدة لبسط السّيطرة والنّفـوذ أو تحقيـق الامتيـازات والهيمنـة الامبرياليّة الاقتصاديّة.

فبفضـل هـذه الوثـائق الأصليّـة الفريـدة والإشـارات المختلفـة والهامّـة الـواردة في الأرشـيف الأراغونـيّ في برشـلونة وميورقـة نسـتطيع مسـكَ خيـوط السّياسـة القطلانيّة المغاربيّة ونسجَ تـاريخ هـذه الحقبـة وتسـجيل

صورة حقيقيّة عن حركيّة هذه العلائق وميزة هذه التّعاملات وهذه البلدان ولا سيّما بتلمسان ومراسيها. وعلى نشأة الامبراليّة البرشلونيّة والرّأسماليّة القطلانيّة مع ميورقة وبرشلونة في هذا النّصف الأوّل والثّلث الثّاني من القرن الرّابع عشر ميلاديّا.

إنّ علاقات التّاج الأراغونيّ مع المغرب الأوسط بتلمسان بدأت مع باعث الدّولة الزّيانيّة ياغمراسن. وشهدت فترات قوّة ووهن بحسب الظّروف والملابسات التّاريخيّة. ولم تستطع تحقيق أهدافها الامبراليّة والماليّة إلاّ في عهد السّلطان أبي حمّو وابنه تاشفين لقوّة الحرس المسيحيّ وقائده ولقبول تلمسان دفع الإيتاء السّنويّ من مداخيل القمرق التّلمسانيّ. كما تشير إليه معاهدة الصّلح المبرمة سنة 1323م. وكانتْ للفتن والثّورات الدّاخليّة وهجومات الأجوار الأشقّاء: الحفصيّين والمرينيّين الدّفاعيّة تارة والهجوميّة أخرى سببا في هذا التّنازل والتّخاذل والقبول بهذه الهيمنة

التي ميّزت سياسة ملوك أراغون في القرنين الثّالث والرّابع عشر.

وكان طريق الذّهب بسجلماسة قد ضاعف من جهود أراغون لبسط النّفوذ وابتزاز ثراء البلد ومداخيله الأساسيّة من التّجارة والذّهب.

لكن وإن توفّقت الامبراليّة الأراغونيّة اقتصاديّا وتجاريّا فهي لم تفلح ترابيّا ودينيّا. ولعلّ هذا النّهم التّجاريّ والتّكالب على الذّهب والدّينار التّلمسانيّ أو الإفريقيّ الذّهبيّ كان أحد أسباب هذا التّوقّف الدّينيّ وفشل المسيحيّة في الاستيلاء على المغرب الأوسط وإفريقيّة. فبقي هذا الحلم سرابا يراود الكنيسة وملوكها القدّيسيّين بتونس وتلمسان وفاس ومرّاكش. ولئن بدأ هذا الحلم السّرابيّ يتحقّق منذ القرن الثّاني عشر بإسبانيا والأندلس وبعض بلاد المشرق فلقد تكسّر على صخور شموخ العقيدة الإسلاميّة وتجذّرها في شبه الجزيرة المغربيّة.

ويحقّ للمواطن المغاربيّ اليوم أن يتساءل بعد استطلاع أحداث هذا التّاريخ الوسيط واستقرائها هل تبدّد هذا السّراب أو مازال يراود بعض عقول الامبراليّة صليبيّة كانت أو سياسيّة اقتصاديّة في هذا القرن الواحد والعشرين ويعرقل نموّ علاقات دوليّة سليمة بعيدة عن الغطرسة والهيمنة؟

ومهما يكن من أمر فقد ظلّ هذا السّراب سرّ هذه العلاقة التّلمسانيّة القطلانيّة بل المغاربيّة، وسرّ هذا الاهتمام المفرط بكلّ ما كان يحدث بأقطار المغرب. وللمواطن المغاربيّ أن يتساءل هل سيبقى مثلُ هذا السّراب السّياسيّ بين علاقات الدّول المهيمنة على الدّول الأخرى الثّريّة الضّعيفة والصّديقة في الظّاهر ؟! ففضل هذه الوثائق ولا شكّ عظيم في تعرية هذا السّراب وإماطة اللّثام عنه بل فضْحه !!

القسم الثّاني

الوثائق

والتّحاليل والتّعاليق

1°) - الوثيقة رقم 88 (بأرشيف أراغون)

- التّقديم

هي رسالة من هلال بن عبد الله من تلمسان إلى جاقمو ملك أراغون حول النّصارى التّابعين إلى خوان مانوال والمطلوب إطلاق سراحهم، ومعاهدة الصّلح الرّاغب فيها السّلطان، والضّمانات المقترحة. وذلك بتاريخ غرّة صفر سنة 723هـ الموافق لـ 9 فيفري من سنة 1323م.

- نصّ الرّسالة

السُّلْطانُ الأجلُّ الأعزُّ الأكْرمُ الأفْضلُ الأحبُّ الأخْلصُ الأكْملُ دُونُ جاقْمةُ سُلْطانُ أراغُون أكْرمهُ اللهُ بتقْواهُ ووفّقهُ لما يُحبُّهُ ويرْضاهُ مُحبُّهُ ومُعْتقدُهُ الشّاكرُ كثيرا على الدّوام لهُ عبْدُ المقام العليّ خلّد اللهُ مُلْكهُ هلالُ بنُ عبد الله. سلامٌ على منْ اتّبع الهُدى ورحْمةُ الله تعالى وبركاتُهُ.

وبعْد حمْد الله حقّ حمْده والصّلاة التّامّة على سيّدنا ومولانا مُحمّد الكريم وعبْده وعلى آله وصحْبه الكرام الخُلفاء منْ بعْده فإنّهُ [كتبْنا] إليْكُمْ منْ باب موْلانا أيّدهُ اللهُ بحضْرة تلمْسان حرسها اللهُ تعالى وليْس إلاّ الخيْرُ واليُسْرُ. والحمْدُ للّه ومُوجبُهُ إليْكُمْ إعْلامُكُمْ بوُصُول كتابكُمْ وعلمْنا ما

ذكرْتُمْ فيه وأنْتُمْ تطْلُبُون منّا أرْبعة وعشْرين نصْرانيًّا[1] متاعَ جوان منْوال ونحْنُ نُعرّفكُمْ أنّكُمْ إذا أردْتُمْ صُلْحَ مولانا أيّدهُ اللّهُ فنحْنُ نُعْطيكُم[2] الأرْبعة وعشْرين نصْرانيًّا الّذين طلبْتُمْ متاعَ جُوان منْوال ونُعْطيكُم أيْضا زيادة عليْهمْ ثلاثين نصْرانيًّا منْ بلادكُمْ من الّذي نُعْطيكُمْ نحْنُ باخْتيارنا دُون أنْ تُعيّنُوا لنا أنْتُمْ أحدا فإنْ أنْتُمْ وافقْتُمْ على ما ذكرْناهُ لكُمْ فنعْملُهُ[3] لكُمْ ويقعُ الصُّلْحُ بيْننا وبيْنكُمْ إنْ شاء اللّهُ وإذا أردْتُمْ سلف ذهب فنُسْلفُ[4] لكُمْ ما يتيسّرُ لنا بعْد أنْ تُعْطُونا الضّمان والرّهان في

(1) في النّصّ الأصليّ: نصراني [كذا]. وفي ما يلحق أيضا.
(2) في النّصّ الأصليّ: نعطوكم [كذا]. وفي ما يلحق أيضا.
(3) في النّصّ الأصليّ: فنعملوه [كذا].
(4) في النّصّ الأصليّ: فنسلفوا [كذا].

...هب وإنْ أنْتُمْ لمْ تعْملُوا ما ذكرْناهُ لكُمْ ولمْ ...افقُوا عليْه فما بيْننا كلامٌ.

واللّهُ سُبْحانهُ المُوفّقُ للصّواب والسّلامُ على منْ ...بع الهُدى ورحْمةُ اللّه تعالى وبركاتُهُ.

وكُتبَ في 1 صفر عامْ 723هـ.

ـ التّحليل

هي رسالة من وزير سلطان تلمسان الزّيّانيّ (1) هلال بن عبد الله باسم السّلطان إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون يعلمه فيها بتلقّي كتابه الذي طلب فيه إطلاق سراح أربعة وعشرين نصرانيّا تابعين للتّاجر القطلانيّ خوان مانوال. والذين كان تمّ أسرهم. فيعبّر له السّلطان عن استعداده لتسليمهم حسب رغبة ملك أراغون. لكن بشرط عقد صلح وإبرامه بين البلديْن. ويشترط سلطان تلمسان تحقيق الصّلح قبل تحرير الأسرى النّصارى. ويعرض عليه استعداده لتسليمه ثلاثين نصرانيّا آخرين يختارهم السّلطان بنفسه لا الملك رافضا إمكانيّة تعيين ملك أراغون أيّ واحد من بين هؤلاء الثّلاثين المقترحين.

(1) السّلطان هو ابن يغمراسن بن عثمان بن موسى بن زيّان

…عرض عليه السّلطان كذلك استعداده لتقديم سلف …من الذّهب إن رغب في ذلك شرط تقديم الرّهن …دريّ والضّمانات الكافية. وإن رفض ملك أراغون …الصّلح معه فقد أخبره السّلطان أنّه لا يمكنه أن …عل شيئا أو يسلّم أحدا، ويكون كلّ منهما حرّا في …وقفه.

ـ التّعليق

نلاحظ من خلال هذه الرّسالة صلابة سلطان …لمسان وجرأته في شيء من الكياسة على رفض طلب …لك أراغون الذي يريد الحصول على كلّ شيء دون …فع أيّ مقابل.

والسّلطان لا يكتفي بإظهاره الاستعداد للاستجابة إلى رغبة الملك في صورة إقدامه على عقد الصّلح معه حسب الشّروط التي تريدها تلمسان لا التّاج الأراغونيّ.

بل يعرض عليه استعداده لتسليمه ثلاثين نصرانيا آخرين لكن بشرط أن لا يختار ملك أراغون أحدا منهم فالسّلطان يريد أن يتصرّف كما يشاء.

ويمضي السّلطان قُدُما في استعمال لغة التّرغيب التي يفهمها ملك أراغون والمتمثّلة في إقراضه مبلغا من الذّهب لكن برهان وضمان. ويبدو أنّ السّلطان تقدّم بهذا العرض لأنّ الملك كان كاتَبه في شأن الصّلح وأرسل له مفاوضا يطلب منه دفع إيتاء قارّ من معلوم مداخيل الدّيوانة التّلمسانيّة وهو نصف العشر وكان السّلطان رفض الطّلب وإمضاء الصّلح. وهو ما حمل ملك أراغون على تهديده بالحرب عن طريق القطع والقرصنة. لكنّ حاجته إلى الذّهب جعلته يتوخّى سياسة اللّين والحصول على الأموال عن طريق التّجارة وإيتاء من المداخيل القمرقيّة بتلمسان.

وكان السّلطان يغمراسن الزّيّاني رفض دوما دفع هذا المعلوم وقبول هذا المبدأ الذي كان يسمح بطريقة غير مباشرة لأراغون بالتّدخّل في شؤون الدّيوانة التّلمسانيّة وكذلك فعل أبناء يغمراسن.

ونستنتج أخيرا أنّ الخزينة بتلمسان كانت في حالة حسنة وأنّ الأحوال التّجاريّة والداخيل الماليّة من الذّهب كانت مزدهرة بما أنّ السّلطان قد عرض على جاقمو ملك أراغون إقراضه كلّ ما يريده من الذّهب بشرط أن يعطي رهنا محدّدا وضمانا كافيا. فالعلاقات الماليّة والتّجاريّة كانت متحكّمة في العلاقات بين البلدين وفي نوع السّياسة التي كانت تتّبع والتي كان يعتمدها ملك أراغون خاصّة في علاقته مع تلمسان.

2°) - الوثيقة رقم 89

- التّقديم

هي رسالة من عبد الرّحمان بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيّان بتلمسان إلى جاقمو الثّاني ملك أراغون يُعلمه فيها بإرساله رُسُلا لإبرام عقد صلح معه وذلك بتاريخ 17 رجب من سنة 727هـ الموافق للثّامن من جوان سنة 1327م.

نصّ الرّسالة

منْ عبْد الرّحْمان بْن مُوسى بْن عُثْمَان بْن يغمراسن بْن زيّان أيّد اللّهُ أمْرهُ وأعزّ نصْرهُ إلى الملك المُعظّم السّلْطان الأعزّ الأنْجد الأشْهر الأضْخم الأفْخم الأرْضى الكامل في أهْل ملّته العادل الأمْضى في ممْلكته ملك أراغون وبلنْسية وسرْدانية ومرْسية وقنْط برْشلونة جاقمُهْ أكْرمهُ اللّهُ تعالى بتقْواهُ ووفّقهُ وأرْشدهُ وهداهُ. سلامٌ على منْ ابْتغى الهُدى ورحْمةُ اللّه تعالى وبركاتُهُ.

وبعْد حمْد اللّه العظيم والصّلاة على سيّدنا ومولانا محمّدٍ رسُوله المُصْطفى الكريم والرّضى عنْ أصْحابه الخُلفاء التّابعين لهُ عليْه السّلامُ على المنْهج القويم والصّراط المُسْتقيم والدّعاء لهذا (Sic)

المقامِ العليّ التّاشْفينيّ[1] السّنيّ بالنّصْرِ العزيزِ وَالفتْحِ العَمِيمِ.

فالكتَابُ إلَيْكُمْ - كتَبَ اللّهُ لكُمْ أَصْلَحَ الأعْمالِ وَأَزْكَاها وبلّغكُمْ من التّوْفيقِ أَنْهى الأماني وَأقْصاها مِنْ حضْرتنا بمدينةِ تلمْسان حرسَها اللّهُ تعالى عن الخيْرِ التّامِّ وَاليُسْرِ العامِّ والحمْدُ للهِ كما هُو أَهْلُهُ وعَن الرَّعْي لجانبكُمْ والاغْتباط بمُصاحبتكُمْ والعمل علَى مَا يُؤكّدُ أسْباب مُواصلتكُمْ وبمُقْتضى ذلك — وجّهْنَا إلَيْكُمْ ولدكُمْ الزَّعِيم الأنْجد الأنْهض الأجدَّ المُكرَّم لديْنا الأثِير عنْدَنا جاقمُهْ مع ثِقتنا الشّيْخِ المُكرَّمِ الأمين الحاجِّ الأفْضل أبي يعْقوب يُوسُف بْن

(1) تاريخ ابن خلدون. ج. 6.

الحوْراء، برَسْمِ عقْدِ الصُّلْحِ بيْننا وبيْنكُمْ على حسَبِ ما في العُقُود الواصلَةِ صُحْبتُها إليْكُمْ. وألْقيْنا إليهما ما يُلْقيانهِ فِي معَاني ذلكَ كلّه إليْكُمْ ويقرّرانهِ علَى الكَمالِ والتّمَامِ لَديْكُمْ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

والسَّلامُ علَى منْ اتّبعَ الهُدَى.

وكُتِبَ فِي السَّابِعِ عشَرَ لِرَجبِ الفَرْدِ المُبَارَكِ عامَ سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمَايَةٍ.

ـ التّحليل

في هذا الكتاب المُنتظر يُعلم السّلطان عبد الرّحمان الزّيّانيّ جاقمو الثّاني بأنّه يرسل إليه مبعوثيْن لإبرام عقد الصّلح معه: حاجبَه الشّيخ أبا يعقوب يوسف بن الحوراء وجاقمو[1] ابن جاقمو الثّاني ملك أراغون الذي كان يعمل بتلمسان سفيرا مفوّضا لأبيه يرعى مصالح القطلانيّين بها ويتاجر في آن واحد لفائدته. ولقد أرسله والده مرّات عديدة[2] لتلمسان حيث أقام مدّة طويلة يتاجر ويدافع عن مصالح القطلانيّين في تلمسان. وكان يميل إلى سياسة السّلم مع تلمسان. وأقنع أباه بقبول إبرام عقد الصّلح مع السّلطان بالطّريقة التي يرغب

---

(1) نسبة إلى الجدّ الأعلى رئيس القبيلة تاشفين بن زيّان.

(2) يعرف هذا الابن لجاقمو الثّاني أو بجاقمو اللّقيط Le Batard وعيّن مرّات عديدة سفير تلمسان وكلّفه أبوه بمهمّات كثيرة.

أُنظر ابن خلدون. ج 3. بنو عبد الواد. ج 6 ـ وكتاب دوفرك ص 48 تلمسان.

فيها: أي بدون اشتراط الأداء السّنويّ القارّ من مداخيل الفندق التّلمسانيّ من البضائع القطلانيّة الدّاخلة إلى تلمسان، إذ كان سلطان تلمسان رفض هذا الشّرط ولم يقبل الاستجابة أبدا لرغبات جاقمو الثّاني وخططه للتّغلغل في شؤون الدّيوانة التّلمسانيّة للسّيطرة عليها والحصول على امتيازات، مثلما استطاع أن يفعل مع الحفصيّين بتونس، خاصّة مع ابن اللّحيانيّ سلطان تونس في معاهدة سنة 1314م التي كانت سابقة خطيرة رفضها فيما بعد السّلطان أبو بكر بن أبي زكريّاء الحفصيّ.

ـ التّعليق

1 ـ نرى من خلال هذه الرّسالة والمعاهدة التي أبرمت بين تلمسان وأراغون أوّلا أنّ جاقمو الثّاني الملهوف على الذّهب الذي يمرّ بتلمسان وسجلماسة وجد نفسه مضطرّا للموافقة على شروط السّلطان عبد الرّحمان ابن يغمراسن بن زيّان وقبل إمضاء عقد صلح

معد، وبالتّالي على أن يسلّمه الأربعة وعشـرين نصرانيّا الأسرى الذين كان طلب إطلاق سبيلهم وإرجاعهم إليه.

2 - ويتأكّد لنا ثانيا الدّور الهامّ الذي كان يلعبه ابن جاقمو الثّاني جاقمو اللّقيط مُفوّضا منه في مهمّات كثيرة بتلمسان وميورقة[1] وفي العلاقات القطلانيّة التّلمسانيّة في النّصف الأوّل من القرن الرّابع عشر.

كما نلمس الصّداقة التي كانت تربطه بسلطان تلمسان حتّى إنّ هذا الأخير بعثه مع حاجبه رسولا لأبيه كي يمضيا عقد الصّلح الذي كانا أعدّاه بتلمسان.

3 - ونستنتج أخيرا من هذه الوثيقة والرّسالة التي سبقتْها عدد 88 تشابك المصالح في هذه العلائق القطلانيّة التّلمسانيّة وتداخلها: التّجارة مع السّياسة والمصالح الشّخصيّة الذّاتيّة.

(1) أنظر ماسْ لاتري "معاهدات" . ودوفرك: "دول المغرب وقطلانيا".

3) - الوثيقة رقم 90

- التّقديم

هذا الكتاب بتاريخ 17 رجب من سنة 727هـ الموافق الثّامن من جوان سنة 1327م بعثه الحاجبُ هلال بن عبد الله على لسان ملكه سلطان تلمسان بن زيّان بن عبد الواد إلى ملك أراغون جاقمو الثّاني في شأن عقد الصّلح المزمع عقده بين البلدين.

ـ نصّ الرّسالة

إلى الملكِ المُعظّم السُّلْطان الأَسْعد الأنْجد الأضْخم الأفْخم الأعزّ الأشْهر عِماد أهْل ملّته الضّابط لمملكته بجميل سياسته ملك أراغون وبلنْسية وسرْدانية ومُرْسية جاقُمُ سنى اللّهُ توْفيقهُ ونهج إلى الرّشاد والهُدى طريقهُ منْ مُفخّم سُلطانه ومُرْفع محلّه على مُلوك النّصْرانيّة وشأْنه عبْد المقام العليّ التّاشْفينيّ السّنيّ أيّدهُ اللّهُ تعالى هلال بْن عبْد اللّه. سلامٌ [على من][1] اتّبع الهُدى ورحْمةُ اللّهِ تعالى وبركاتُهُ.

(1) ـ ما بين معقفين زيادة منّا ليستقم التّركيب.

وبعْد حمْد اللّهِ حقّ حمْده والصّلاة على سيّدنا ومولانا رسُوله الكريم وعبْده والرّضى عنْ آله وأصْحابه الخُلفاء الرّاشدين الهادين المُهْتدين منْ بعْده. والدّعاء لهذا المقام العليّ التّاشْفيني الكريم السّنيّ بنصْر عزيز منْ عنْده. فالكتابُ إليْكُمْ ـ كتب اللّهُ لكُمْ توْفيقا يُرْشدُكُمْ ونهج طريقكُمْ إلى ما يُسْعدُكُمْ منْ باب مولانا أيّدهُ اللّهُ بنصْره وأمدّهُ بمعُونته ويسْره عنْ الخيْر الأتمّ واليُسْر الأعمّ والحمْدُ للّه على ذلك كثيرا وعنْ التّكْريم لسُلْطانكُمْ والمعْرفة بقدْر محلّكُمْ منْهُ ومكانكُمْ والعمل بمُقْتضى ذلك في كلّ أمْره وشأْنه وإلى هذا ـ فإنّهُ بحسب المُعْتقد فيكُمْ والمُعْتمد عليْه منْ محبّتكُمْ وتصافيكُمْ وجّه مولاي أيّدهُ اللّهُ تعالى إليْكُمْ ولدكُمْ الزّعيم

الأنْجد الأسْعد المُكرّم عِنْدهُ الأثير لديْه مُراعاة لكُمْ جاقْمُ مع ثقته الشّيْخ الأمين المُكرّم الأفْضل الحاجّ أبي يعْقُوب يُوسُف بْن الحوْراء للحديث معكُمْ في شأن عقْد الصُّلْح بيْنكُمْ وبيْنهُ، على نحْو ما تضمّنتْهُ العُقودُ الواصلةُ إليْكُمْ صُحْبتهُما. واسْمعُوا لحديثهما وقفُوا على العُقود التي بأيْديهما واعْلمُوا أنّي قرّرْتُ عند موْلاي أيّدهُ اللّهُ وفاءكُمْ وعرّفْتُهُ وهُو العارفُ أيّدهُ اللّهُ عنْكُمْ. وتحقّقُوا أنّي لكُمْ كما تُحبُّون، مُجْتهدٌ فيما يتّجهُ لكُمْ عنْدي من الحوائج[1] على سبب ما تُريدُون إنْ شاء اللّهُ تعالى.

(1) - في الأصل: الحوايج. [كذا]. الحوائج جمع حاجة: أي طلب قضاء شأن خاصّ.

وقدْ ألْقيْنا في ذلك لولدكُمْ الأنْجد جاقْمُهُ وللأمين الحاجِّ أبي يعْقُوب بْن الحوْراء ما يُلْقيانه إليْكُمْ ويُقرّرانه (Sic) لديْكُمْ إنْ شاء اللّهُ تعالى.

والسّلامُ على منْ اتّبع الهُدى.

وكُتب في سابع عشْرة لرجب الفرْد عام سبْعةٍ وعشْرين وسبْعمايةٍ.

- التّحليل

يؤكّد السّلطان في هذه الرّسالة صداقته ومحبّته لملك أراغون ووفاءه للمودّة القائمة بينهما ويعلمه أنّه أرسل هذا الكتاب مع أحد ثقاته والمقرّبين إليه الحاج أبي يعقوب يوسف بن الحوراء الذي كان أرسله في مهمّات مماثلة وكذلك مع ابن جاقمو الثّاني جاقمو المعروف باللّقيط والذي كان عيّنه والده سفيرا له بتلمسان وراعيا لمصالح القطلانيّين بها. ولقد توفّق جاقمو إلى ربط علائق صداقة مع سلطان تلمسان. لذلك أرسله هذا الأخير مع رسوله ابن الحوراء لمناقشة عقد الصّلح ومختلف بنوده ويذكر له الحاجب هلال بن عبد الله أنّهما حملا معهما العقود المقترح النّظر فيها والمتضمّنة لما يرغب فيه جاقمو الثّاني.

وفي القسم الأخير من الرّسالة يطمئنّ هلال ملك أراغون بأنّ الأمور تجري كما يريد وأنّه سيكون مخلصا له مجتهدا في خدمته وتحقيق ما يريده من الحوائج فيقول: "إنّي لكم كما تحبّون مجتهد فيما يتّجه لكم عندي من الحوائج على سبب ما تريدون".

- التّعليق

نرى في هذه الرّسالة الوزير هلال بن عبد الله يربط صداقة خاصّة بملك أراغون ويلتزم بخدمته. ويعلمه في هذا الكتاب أنّ الأمور تسير على حسب ما يريد، وأنّه مجتهد في تحقيق رغباته وإقناع السّلطان بذلك وبما يكنّه له جاقمو الثّاني من محبّة وتقدير. وأكّد له أنّ جاقمو اللّقيط ابن الملك يعلم ذلك وسيتولّى إطلاعه مشافهة على ما يقوم به من عمل لصالح التّاج الأراغونيّ.

ونتساءل: هل كان سلطان تلمسان على علم بحقيقة هذه العلاقة ؟ وهل هذا الموقف هو مجرّد تكْتيك وخدْعة؟ أم هي خيانة لسيّده السّلطان ولبلده تلمسان حقّا ؟

وعلى كلٍّ يتّضح من كلّ هذه العلائق المتداخلة الحميمة تارة والعدائيّة أخرى طغيان النّاحية الذّاتية وما توفّره من الفوائد المصلحيّة.

4°) - وثيقة رقم 91

- التّقديم

هذه الرّسالة التي تحمل رقم 91 بتاريخ 24 ربيع الثّاني - بدون ذكر سنة الإرسال التي قد تكون كما بيّنا أسفله في حدود سنة 1323 - 1324م - قبْل إبرام سلطان تلمسان عَقد الصّلح مع جاقمو الثّاني سنة 1327م، وقبْل وفاة هذا الملك النّصرانيّ سنة 1327م. وكان قد اعتلى عرش أراغون سنة 1291م.

ولقد وجّه السّلطان عبد الرّحمان بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيّان صاحب تلمسان إليه رسالة يُعلمُه فيها بوصول كتابه مع رسوله ومفوّضه. وهي مسجّلة بالأرشيف الأراغونيّ في قسم الأرشيف الأندلسيّ (ج 3 سفر 1 ص 97).

- نصّ الرّسالة

السّلْطانُ الأجلُّ الأعزُّ الأكْرَمُ الأرْفعُ الأكْملُ دُون جاقْمةُ سلْطانُ أراغُون وبلنْسية وسرْدانية وقرشقة[1] وبرْشلُونة. أدام اللّهُ كرامتهُ بتقْواهُ وأسْعدهُ لما يُحبُّ[ـهُ][2] ويرْضاهُ. مُؤْثرُ تكْرمته وبرّه العالمْ بكبير منْصبه وَقدْره عبْدُ الرَّحْمان بْنُ مُوسى بْنُ عثْمان أيّدهُ اللّهُ تعالى بنصْره. سلامٌ على منْ اتّبع الهُدى ورحْمةُ اللّه تعالى وبركَاتُهُ.

وبعْد حمْد اللّه حقّ حمْده والصّلاة التّامّة على سيّدنا ومولانا مُحمّد نبيّه الكريم وعبْده وعلى آله وصحْبه الكرام الخلُفاء منْ بعْده فإنّهُ [كتبْنا] إليْكُمْ

(1) - المقصود: كورسكة.

(2) - أضفْنا ضميرَ"ـه" بين معقّفين ليستقيم المعنى.

منْ حضْرة تلمْسان حرسها اللّهُ تعالى ونحْنُ نحْمدُ اللّه تعالى الذي لا شيْءَ كمثْله ونلْجأُ إليْه في أمْرنا كُلّه، ونسْألُهُ أنْ يُوزعنا شُكْر إحْسانه وفضْله. وعنْدنا لجانبكُمْ المُرفّع تكْرمةٌ نسْتوْفيها ومبرّةٌ تنْتهي إلى الغاية فيها. وعلمْنا بمحلّكُم الشّهير ومكانكُمْ الكبير يسْتدْعي الزّيادة منْ ذلك ويقْتضيها.

وقدْ وصل كتابُكُمْ مع إرْسالكُمْ. ووقفْنا على[1] مقاصدكُمْ فيه ومذاهبكُمْ الّتي تخُصُّ الودّ وتسْتوْفيه، على ما دلّ منْكُمْ على حفْظ القديم والتّمادي في الأسْباب الماضية على المنْهج القويم.

(1) - في الأصل: في [كذا]. أبدلناها بـ: على

ومثْلكُمْ منْ جرى على هذه السُّنن المَسْلُوكـ[ـة][1]

وانْتهى إلى ما يليقُ بجلّة المُلُـوكِ. ونحْـنُ عـاملُون على ما ذكرْتُمْ مِنْ أسْبابِ المُواصلة والوِدادِ وتجْديـد ما كان بيْن الأسْلافِ مِن المودَّةِ والاعْتِقاد وعلـى أنْ تكُون بلادُنا كبلادِكُمْ وتجْرُوا على أغْراضنا ومُرادنـا ونجْري على أغْراضِكُمْ ومُرادكُمْ. وأسْـبابُ الصَّداقـة بيْن السَّلاطين معْلُومةٌ وحُدُودُها مرْسُومةٌ مَوْسُومةٌ.

وأمّا ما أشرْتُمْ إليْهِ منْ تسْريحِ جميع منْ عِنْدنـا مِن الأسـارى فذلِـك مَـا لاَ يُمْكـنُ أنْ يكُـون كمـا لا يُمْكِنُ لنَا أنْ نطْلُبَ منْكُـمْ تسْرِيح مـنْ عِنْدكُمْ مـنْ أسارى المُسْلِمينَ لأنّـ[ـكُمْ][2] تعْلمُـون أنَّ مـا عمّـر

(1) - ما بين معقّفين زيادة منّا ليستقم التّركيب.

(2) - ما بين معقّفين زيادة منّا ليستقم التّركيب.

ندنـا إلاَّ الأَسـارَى وأكْثرُهُمْ صُنَّـاعٌ مُتفنّنـون فِـي واعِ جميعِ الصَّنا[ئـ]ـعِ[1]، وَلَوْ طَلَبْتُمْ ما يُسْـتغْنى الحالُ فِي تَسْـرِيحِ[2] خَمْسَـةٍ أَوْ سِـتَّةٍ لَأسْـعفْنا طالبكُـمْ وَقضَيْنـا إِرْبَكُـمْ[3]. وَأَمَّـا تَسْـرِيحُ الجَمِيـعِ صعْبُ الآنَ. ذَلِكَ يُخْلِي المَوَاضِعَ وَيُعَطِّلُ مَا يُحْتاجُ إليْـه مـنْ أَنْـواعِ الصَّنَـائِعِ. فَـإنْ أَرَدْتُـمْ أَنْ تَكُـون الصَّداقَةُ بَيْننا وبيْنكُمْ فِي مَا عدَا الأَسْرى[4] ويكُـون حالُنا وحَالُكُمْ وَاحِدًا فِـي مَـا نَحْتَـاجُ أَوْ تحْتَـاجُون

(1) - في الأصل: الصناع [كذا]. الصَّنَائِعُ: الحِرف والمهن اليدويّة التي تحتاج إلى مهارات فنّيّة.

(2) - التّسريح: إطلاق الأسرى.

(3) - الإرب: الطّلب أو الرّغبة أو الحاجة.

(4) - في الأصل: الأسارى [كذا].

إليْه منْ قضاء الحوائج[1] الّتي تُمْكنُ، ومنْ سرْحة[2] أوْ غيْرها فنحْـنُ نعْمـلُ إنْ شاء اللّـهُ على ذلك. ونسْـألُكَ فـي مودّتكُمْ وصداقتكُمْ أنْهـج المسـالك. فاعْلموا ذلك. واللّهُ يُسْعدُكُمْ برضاهُ ويُديمُ كرامتكُمْ بتقْواهُ. والسّـلامُ على مـنْ اتّبـع الهُـدى والرّحْمـةُ والبركةُ.

[كُتب][3] في الرّابع والعشْرين لربيع الثّاني عامْ ..... [4]

(1) - في الأصل: الحوايج. [كذا].

(2) - سرحة: إطلاق سراح الأسرى.

(3) - ما بين معقّفين زيادة منّا ليستقم التّركيب.

(4) لم يُذكر التّاريخ خاصّة السّنة فقد أرسلت يوم 24 ربيع الثّاني ونعلم أنّ جاقمو الثّاني كان ملك أراغون من سنة 1291م إلى سنة 1327م فقد تكون هذه الرّسالة حُرّرت في سنة 1327 مثل رسائل أخرى أرسلها عبد الرّحمان بن عثمان بن الزّيّاني سلطان تلمسان في الموضوع نفسه.

- التّحليل

يؤكّد سلطان تلمسان في هذه الرّسالة استعداده لدعم أواصر الصّداقة والتّوادُدِ والتّقارب التي ذكرها ملك أراغون في كتابه، وأخبر عن أمله في أن تتجدّد علائق المودّة التي كانت قائمة بين الأسلاف.

ثمّ ينتقل إلى الموضـوع الأساسيّ وهـو طلب جاقمو الثّـاني مـن السّـلطان تسـريح كـامل الأسرى النّصارى الموجوديـن بتلمسـان. فيعـبّر السّـلطان الزّيّـانيّ عـن استحالة تمكّنه من تلبية مثـل هـذا الطّلب لعدم قـدرة تلمسان الاستغناء عن هؤلاء الأسرى النّصارى الحـاذقين جلّ الصّنائع والحرف التي يحتاجهـا إعمـار تلمسـان. "فـأكثرهم صنّـاع مـاهرون متخصّصـون في جميـع أنـواع الحرف... فإخلاؤهم يعني تعطيل ما يُحتـاجُ إليـه مـن أنواع الصّنائع".

لذلك يقترح عليه ــ مرضاة له ــ تسريح خمسة أشخاص أو ستّة يمكن أن يقترحهم عليه ملك أراغون.

ويُعبّر في آخر الرّسالة عن استعداده لقضاء الحوائج الأخرى التي قدْ يحتاجها الملك ويطلبها منه.

- التّعليق

نلمس من هذه الوثيقة التّاريخيّة والاجتماعيّة الهامّة دور الأسرى النّصارى في تلمسان والبلاد المغاربيّة، فهم يُستعملون لإعمار البلاد ولنشر مختلف الصّنائع والحِرَف التي يحتاج إليها المسلمون، والتي كان هؤلاء مثل الأندلسيّين يتقنونها. لذلك لم يكن بالإمكان الاستغناء عنهم أو حتّى مُقايضتهم بأسرى مسلمين. ويذكر السّلطان صراحة أنّه لا يمكنه أن يطلب من الملك "تسريح" مَنْ عنْدَهُ [من]أسرى المسلمين. ويعترف أنّ ما عمّر بلاده إلاّ الأسرى.

ونرى اليوم خطورة مثل هذا السّلوك ومنافاته أبسط القواعد الإنسانيّة وحقوق البشر وكرامتهم مهما كان معتقدهم. ولئن كان لا يحقّ لنا أن نتحدّث عن الحقوق الإنسانيّة في هذا التّاريخ الوسيط فلا ننسى أنّ الدّين الإسلاميّ أقرّها ودافع عنها منذ القرن السّابع الميلاديّ أي منذ عهود الإسلام الأولى.

ونلاحظ كيف أنّ الصّداقة بين البلدين ممكنة والعلاقة كان يمكن أن تتحسّن وتتدعّم بشرط أن لا يعود التّاج الأراغونيّ إلى ذكر مثل هذا الموضوع للسّلطان.

ونرى أخيرا كيف أنّ ملك أراغون جاقمو الثّاني يعتبر كلّ الأسرى النّصارى من رعاياه ودوره أن يتولّى الدّفاع عنهم ويعمل على تحريرهم للرّسالة الدّينيّة التي يعتبر نفسه مسؤولا عنها. ولقد كلّفه بذلك فعلا البابا

وألحّ عليه مرّات عديدة. كما يُبيّن ذلك "ماس لاتري" في "معاهداته" و"دوفورك" في دراسته. وقد طلب البابا من الملك أن يعمل شتّى الوسائل من أجل تحرير الأسرى النّصارى. ولقد ذكر ذلك جاقمو الثّاني في رسالة من رسائله لسلطان تلمسان مبديا إلحاحه في هذا الموضوع.

وفي الوثيقة رقم ٩٦ يذكر السّلطان قول رسول جاقمو الثّاني في أمر الأسرى النّصارى: "ولمْ يكنْ عُذْرُهُ إلاّ أنّهُ كان ذلك بأمْرِ البابا لما كان بيْنهُ وبيْن النّصارى منْ عَهْدٍ".

ويتأكّد لنا من مثل هذا القول تدخّل البابا في سياسة ملوك النّصارى وضغطه عليهم في كلّ ما يهمّ علاقتهم بالمسلمين وخاصّة بتلمسان وإفريقيّة إلى جانب الأندلس.

ونستنتج أخيرا قيمة الدّور التّعميريّ للأسرى النّصارى في إعمار تلمسان وتنميتها، والحاجة الملحّة لمثل هؤلاء الأسرى، لذلك كان التّشجيع على القطع والقرصنة كلّما دعت الحاجة لذلك. وهذا ينطبق على صاحب تلمسان، كما هو الشّأن أيضا على ملك أراغون الذي كان يحرّض على القطع لإكراه السّلطان على قبول الصّلح، حسبَ شروطِه وإملاءاته، ولمحاولة مبادلة بعض الأسرى النّصارى الهامّين من عائلة البلاط وحاميته بأسرى مسلمين.

5°) - الوثيقة رقم 92

- التقديم

هذه الوثيقة رسالة بعث بها عبد الرّحمان بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيّان سلطان تلمسان إلى ألفونس الرّابع ابن الملك جاقمو الثّاني الذي خلف أباه على عرش أراغون بتاريخ 4 رجب سنة 730هـ الموافق ليوم 14 ماي من سنة 1330م يعلم فيها بإرسال سفير له ومعه كتب ليتعرّف على ما فيها.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عبْد الرّحْمان بْن مُوسى بْن عُثْمان بْن يغْمراسن بْن زيّان أيّدهُ اللّهُ بنصْره وأمدّهُ بمعُونته ويُسْره إلى السُّلْطان الأجلّ الأفْضل الأكْرم الضّرْغَام[1] الأفْخم الأضْخم ألفُنْس[2] ابْن السُّلْطان الأجلّ الأكْرم الأفْضل الضّرغَام الأضْخم الأفْخم دُون جاقْمُو صَاحب أراغُون وبلنْسية وسرْدانية. سلامٌ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الهُدَى وَرَحْمَةُ اللّه تَعَالَى وبركاتُهُ.

أمّا بَعْدُ، فَإنّا نُعرّفُكُمْ أنّهُ يَصلُكُمْ الشّيْخُ الفارسُ الأعزّ الأكْرمُ الأفْضلُ الكبيرُ الشّهيرُ أبُو

(1) - في الأصل: الذرغام. [كذا].

(2) - في الأصل: ألفنش [كذا].

عمْران مُوسَى ابْن الشّيْخ الأجلّ الأعزّ الأرْفع الأكْبر الأشْهر أبي عنَان فَارس بْن حريز صُحْبة أخيكُم[1] (Sic) القائد الأضْخم الأفْخم دُون جاقمُو وصُحْبتُهُما الشّيْخُ الأجلُّ المُكرّمُ الفاضلُ أبُو يعْقُوب يُوسفُ المَعْرُوفُ بابْن الحوْراء. وبأيْدي المذْكُورين من الكُتُب ما تقفُون[2] (Sic) عليْها وتتعرّفُون[3] ما عنْدنا منْها إنْ شاء اللّهُ تعالى. واللّهُ المُوفّقُ للصّواب والمُعينُ عليْه. والسّلامُ على منْ اتبع الهُدَى (Sic) وَرَحْمَةُ اللّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وكُتب في اليوم الرّابع منْ شهْر رَجب الفرْد الّذي هُوَ مِنْ عَامِ ثَلاثِينَ وَسَبْعمِاية.

(1) ـ في الأصل: أخوكم [كذا]. وهو جاقمو اللقيط
(2) ـ في الأصل: تاقفوا. [كذا].
(3) ـ في الأصل: وتتعرفوا. [كذا].

ـ التّحليل

بعث السّلطان الزّيّاني عبد الرّحمان هذه الرّسالة مع الفارس القائد أبي عمران موسى ابن الشّيخ أبي عنان فارس بن حريز أحد وزرائه صحبة أخ الملك جاقمو اللّقيط ابن جاقمو الثّاني السّفير الدّائم بتلمسان ـ كما كنّا رأينا آنفا ـ ومعهما الحاجب ابن الحوراء أبو يعقوب يوسف الذي كان أُرسل في مهمّة مماثلة إلى جاقمو الثّاني. وقد أسلمهم كتبا ليطلعوا عليها ألفونس الرّابع ويعرّفوه بما في مضمونها وما يطلبه السّلطان الزّيّانيّ من تعاون وتحالف فيما يبدو ضدّ الأعداء الحفصيّين والمرينيّين. وهو لا يفصح عن ذلك في هذه الرّسالة. لكنّنا نعلم في مراسلات أخرى وفي وثائق

الأرشيف التّحالف الذي تمّ بينهما ضدّ المرينيّين المهدّدين للنّصارى وضدّ الحفصيّين أنصارهم.

- التّعليق

يتأكّد لنا الدّور الهامّ الذي كان يلعبه جاقمو ابن الملك جاقمو الثّاني في بلاط تلمسان والعلائق الحميمة التي كان يربطها بالسّلطان، وبالسّياسة النّاجحة التي استطاع نسجها بين البلدين وإرساءها بين الدّولتين والموجّهة خاصّة ضدّ الأعداء والمنافسين المسلمين: المرينيّين والحفصيّين. فللمرّة الثّالثة نرى السّلطان يكلّف جاقمو بمهمّة لدى أبيه الملك لعقد الصّلح سنة 1327م مع جاقمو الثّاني وفي هذه المرّة لإقامة تحالف خطير ضدّ المرينيّين[1].

(1) أنظر ابن خلدون. ج. 6. فصل المرينيّين.

6") - وثيقة رقم 95

- التّقديم

هذا الكتاب مؤرّخ بتاريخ 24 ذي الحجّة من سنة 740هـ الموافق لـ 17 أفريل من سنة 1340م. أرسله السّلطان عليّ بن سعيد بن أبي يوسف من تلمسان إلى بترو الرّابع ملك أراغون، بعد عشرة أشهر من إمضائهما لعقد الصّلح في جوان من سنة 1345م. ويخصّ بعض طلبات بترو الرّابع المتعلّقة بالنّصارى الميورقيّين الذين ماتوا في بعض الغارات في عهد ملك ميورقة السّابق جاقمو ديمنجاير، أو التي حدثت مدّة الصّلح مع بترو الرّابع ملك ميورقة.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عَبْدِ اللّه عليٍّ أميرِ المُسْلمين ابْن مَوْلاَنَا أمير المُسْلمين أبي سعيدٍ ابْن مَوْلانا أميرِ المُسْلمين أبي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْن عَبْدِ الحقّ سُلطان فاسَ وَمَرّاكش وَسجلْمَاسَةَ وَسبْتَةَ وَتلمْسَانَ ومكْنَاسةَ وَتَازِي وَسلا وَأنْفي وأَزْمُور وأَسْفِي والقصْر وطَنْجَةَ وأَصيلا ووَهْران وَحُنين[1] ومِلْيَانة والمديدة والجزائر وما إلى ذَلك مِنَ الأقَالِيمِ والبِلاَدِ الشّرْقِيَّةِ وَالغَرْبِيَّة. أيّدَ اللّهُ أمْرَهُ وَأَعَزَّ نصْرَهُ. إلَى السُّلْطَانِ المُكَرّمِ الأَسْنَى أنْبير سُلْطَانِ أَرَاغُونَ وَبَلَنْسِيَةَ وَمِيُورْقَةَ وَسَرْدَانِيَةَ

(1) - في الأصل: هنين [كذا].

وقرصغة[1] وقُنْط[2] برْشلُونة والرُّسَلْيُون وسرْدَانية سلاَمٌ يُرَاجِعُ سَلاَمَكُمْ.

أمّا بعْد حَمْد اللّه تعالَى والصّلاة التّامّة على سيّدنا ومَوْلاَنا محمّد نبيِّهِ الكَريمِ ورَسُولِهِ المُصْطَفى والرّضاء عَنْ آلهِ وَصحْبهِ الطّيّبين الطّاهرينَ أعْلام الإسْلاَمِ وأيمّةِ الهُدى، والدُّعَاء لهَذا الأمْر العَلِيّ العزيزِ العَلَوِيّ بالنّصْر الأعزّ وَالفتْح الأسْنى.

فكَتَبْناهُ إلَيْكُمْ من منْزلنا الأَسْعَدِ بيُسْرِهِ مِنْ حوز الحَضْرةِ العَليّةِ مَنْصُورةِ تِلمْسَان حرَسَها اللّهُ تَعالى ولا مُتَزَايدَ؟ بفضْل اللّه سُبْحَانَهُ إلاّ الخيْرُ الأتمُّ واليُسْرُ الأعمُّ. والحَمْدُ للّهِ كثيرًا.

(1) - في الأصل: قرصغة [كذا]. كورسكة.

(2) - في الأصل: قمط [كذا].

والى هـذا فإنّـهُ وصل التّاجرُ ارْنـاوُدْ قـادِرْشُ بكتاب عليْه طابعُكُمْ تذكُرُون فيه أنّكُمْ بعثْتُمُوهُ في شأْن فُصُول لا هْل ميُورْقة كانتْ في مُدّة صاحب ميُورْقة جاقُمْهْ دمنْبجْلير الّذي كان بها قبْلكُمْ. وقـدْ اسْتظْهر بمسـائل(1) تشْتملُ على نوْعيْن أحدُهُما شكاياتٌ ببعْض المُغيرين(2). منْهُمْ منْ مـات ومنْهُمْ منْ فُقد في المُغاورة. زعم ارْنـاوُدْ أنّهـا كـانتْ في زمن صُلْح مـع صاحب ميُورْقـة المذْكُور فـي ذلك التّاريخ. ومنْها مسائلُ زعم أنّهـا وقعتْ الآن في زمن الصُّلْح معكُمْ وقُلْتُمْ إنّهُ يلْزمُكُمْ أنْ تكْتُبُوا في

(1) ـ في الأصل: بمسايل [كذا].

(2) ـ في الأصل: المغاورين [كذا].

حقّ ناسكُمْ(1) ولا ينْبغي لكُمْ أنْ تتْرُكُوا الكـلام فـي شأْنهمْ. وهذا الذي قُلْتُمْ منْ قضيّة الكتْب والكـلام في حقّ الرّعيّة إنّـهُ واجـبٌ بذلكُمْ صحيحٌ ولكنْ تعْلمُون أنّ كبار النّاس ـ وأوْلى بذلك السّلاطينُ ـ ينْبغي لهُمْ أنْ يُحقّقُوا المسائل الّتي تُرْفعُ لهُمْ. وحينئذ يكْتُبُون بما لا مدْفع فيه. ونحْنُ نُعلمُكُمْ أنّ المسائل الّتي كانتْ في مُدّة جاقُمْهْ المذْكُور حين كان بميُورْقة قدْ كان كتب فيهـا إليْنا وراجعْناهُ. وبعث إرْسالهُ المرّة بعْد المرّة حتّى وقفتْ عليْهمْ الحُجّةُ. ولمْ يكُنْ عُذْرُهُ إلاّ أنّهُ كان ذلك بأمْر الباب لما كان بيْنهُ وبيْن النّصارى(2) من العهْد في

(1) ـ ناسكم: (هنا) رعاياكم.

(2) ـ في الأصل: النصرى [كذا].

ذلِكَ. ورَغِبَ أنْ نَسْمَحَ لَهُ في ذلك، فَلَمْ نَسْمَحْ لَهُ فيه. وقَدْ وافَقَ أرْنَاوَدُ المذْكُورُ على قَضِيَّةِ نقْضِ الصُّلْحِ.

وأمَّا المسائلُ الّتي زعم أنّها في الصُّلْحِ معَكُمْ فتَعْلَمُون أنَّ الصُّلْحَ إنَّما كان الكَلامُ فيه على يدِ السُّلْطانِ الأجلِّ محلِّ وَلَدِنا أبي الحجَّاجِ بْنِ الأحْمَرِ. وإنّا أَسْعفْناهُ بذلك نظرًا للمَصْلحةِ الّتي رَغِبَ فيها. وقدْ وَصَل كتابُهُ الآنَ يقُولُ إنَّهُ بعث لَكُمْ في أُمُورِ الصُّلْحِ المذْكُورِ. فلَمْ يَرْجِعْ إليْه رسُولُهُ بشيْءٍ يخْلُصُ في ذلكُمْ، وإنَّهُ يبْعثُ إلَيْكُمْ رسُولَهُ مرَّةً أُخْرى. فإذا تمَّ ذلكُمْ إنْ شاء اللّهُ فيكُونُ الكلامُ فيما ذكَرْتُمُوهُ وفيما لأهْلِ بلادِنا منَ المطالبِ بما تقْتَضيهِ المصْلحةُ، حتّى تنْفصلَ القضيَّةُ منْ كلا

الجانبيْنِ على ما يقْتضيه الوفاءُ وينْبغي أنْ يُعْمل فيها منَ الخلاصِ بحوْلِ اللّهِ تعالى. وإنْ كان غرضُكُمْ في الصُّلْحِ مَعَ جَانِبِنَا بغَيْرِ واسِطَةٍ فتبْعثُون[1] منْ كبار ناسكُمْ منْ يُعْتَبرُ ويتكَلَّمُ معهُ في ذَلِكُمْ [الأمْرِ][2] ويُمْضي فيه إنْ شاء اللّهُ ما تقْتَضيه المصْلحةُ للجانبيْن وفيه الخيْرُ لرعيَّةِ الجهتيْنِ بحوْلِ اللّه تعالى وقُوّته.. والسَّلامُ يُراجِعُ سلامَكُمْ.

وكُتب في الرَّابعِ والعشْرين لذي [ال]حجَّةِ خَاتِمِ ستَّةٍ وأرْبعينَ وسَبْعِ مَايَةٍ.

وكُتِبَ في التّاريخِ المُؤَرَّخِ بِهِ.

---

(1) ـ في الأصل: فتبعثون [كذا]: أي المرغوب منكم أن تبعثوا.

(2) ـ الزّيادة منّا ليستقيم التّركيب.

- التّحليل

بعد عشرة أشهر من إبرام عقد الصّلح سنة 1345م نرى ملك أراغون بترو الرّابع يعود إلى طلباته الخاصّة بالأسرى وبإطلاق سراحهم وبالتّعويضات التي طالب بها سلفه ملك ميورقة ويُواصِلُ هو المطالبة بها.

فلقد أرسل ملك أراغون التّاجر ارنَاودُ قادِرْش بكتاب للسّلطان المرينيّ: سلطان تلمسان في آن واحد والأندلس، يثير فيها المشاكل وينقل شكايات بعض أهل المغيرين ومطالبتهم بالتّعويض. وكانت هذه الحادثة حصلت قبل إمضاء السّلطان عليّ وملك ميورقة السّابق على العقد ولذلك يعتبر السّلطان أنّه لا يسري عليها الصّلح الجديد.

أمّا المسائل التي حدثت حسب ملك أراغون، مدّة الصّلح فيعبّر السّلطان في لهجة صارمة شديدة أنّه يحقّ له وللسّلاطين أن يتدخّلوا في كلّ ما يهمّ أهْل بلادهم

الذين عليهم أوّلا أن يتثبّتوا ممّا يُرْوى لهُمْ وأنْ لا يتقدّموا إلاّ بما تأكّد لديهم، وأن لا يكاتبوا غيرهم وأن لا يتدخّلوا إلاّ فيما هو صحيح وموثوق منه. ويؤكّد السّلطان المرينيّ عليٌّ أنّ صاحبَ ميورقة القديم كان كاتبه في الموضوع مرّات وأرسل سفراء في شأنه. ولم يثبتْ له شيءٌ بل يقول: "وَقَفَتْ عليه وعلى أهله الحجّة ولم يظهر لهم حقّ". فأهله هم الذين أغاروا على الجبل ونزلوا بالزّقاق[1]. فحدث لهم ما حدث وأُسِرَ منهم من أُسِرَ. واعترف ملك ميورقة أنّه لا حقّ له في الأمر، ولكنّه تدخّل بسبب إلحاح البابا عليه دفاعا عن النّصارى. واعترف أنّ من نقض الصّلح هم الميورقيّون.

وأمّا فيما يخصّ المسائل التي تمّت بعد إمضاء عقد الصّلح فيبيّنُ السّلطان أنّ ولده أبا الحجّاج بن الأحمر هو الذي ناقش العقد وأبرمه وأرسل لملك أراغون رسوله

(1) - المقصود بالزّقاق: زقاق جبل طارق.

يطلب عقد الصّلح فلم يعد بشيء. وهذا يعني أنّ الصّلح لم يُبرم. وبيّن أنّه على استعداد للعمل فيما يخصّ رعايا أراغون ورعايا السّلطان على حدّ السّواء في حال الموافقة على الصّلح وإرسال النّسخة ممضاة. ففي هذه الصّورة يتمّ فصل كلّ القضايا القائمة بما يُرضي الطّرفين ويتماشى مع بنود الصّلح.

ويطلب السّلطان أخيرا من ملك أراغون أن يبعث أحدًا من كبار ثقاته المقرّبين مباشرة بدون واسطة ليُمضي الطّرفان على العقد.

وكأنّنا به يقصد بعدم واسطة أن يتمّ العقد بينه وبين ملك أراغون بدون واسطة ابنه لِيناقش بنفسه بنوده ويمضيه. يقول السّلطان: "وإن كان غرضكم في الصّلح مع جانبنا بغير واسطة فتبعثون من كبار

ناسكُم[1] من يُعتبر ويُتكلم معه في ذلكم ويمضي فيه إن شاء اللّه".

- التّعليق

نلاحظ أنّ القطع والإغارة حدثا أثناء الصّلح، فالقرصنة لا تتوقّف والحرب تتمّ بطريق غير مباشرة بواسطة القراصنة. ولا تكون الحرب رسميّة ومعلنة بل يقومُ بها الملوك والسّلاطين عن طريق القطع بتشجيع منهم للحصول على الأجفان من ناحية وعلى الأسرى العبيد الذين يتمّ بيعهم واستغلالهم لتحقيق مآرب أخرى من ناحية ثانية. وعقود الصّلح كانت توفّر ولا شكّ مناخا من الأمن والاطمئنان للتّجّار وأصحاب السّفن والأجفان لكنّها لا تضمن الأمن المطلق وخاصّة عند ظهور بعض المشاكل أو بروز بعض التّحالفات الجديدة.

---

(1) - ناسكم: أعيانكم وحاشيتكم.

ونستنتج أيضا أنّ ملك أراغون يحاول تحقيق مطالب قديمة وإثارة مشاكل سبقت الصّلح على أنّها تهمّ بلدا تابعا له: ميورقة التي لم يكن لها عقد صلح مع المرينيّين وقتئذ. فهو يتجاهل الأمر ويحاول ابتزاز السّلطان المرينيّ.

فنرى هذا السّلطان يتفصّى من المسؤوليّة لأنّه لم يعقد الصّلح مع ملك أراغون مباشرة بل كان عقده مع ولده سلطان غرناطة. وإن كان سبق أن أعلن في مناسبة سابقة موافقته عليه.

فالابتزاز دوما قائمٌ ومحاولات التّفصّي من العقود المبرمة دوما مطروحة، فعقد الصّلح يرجع له عند الحاجة ويقع تجاوزه عند الضّرورة، والبحث عن الغدْر دوما يسيرٌ وفي متناول الطّرفين.

7") - الوثيقة رقم 96

- التّقديم

هذه الوثيقة التي تحمل رقم ٩٦ في أرشيف التّاج الأراغونيّ تمثّل كتابا للسّلطان عليّ بن السّلطان أبي سعيد ابن السّلطان أبي يوسف المرينيّ الذي أصبح سلطان تلمسان بعد افتكاكها من السّلطان الزّيّانيّ ابن عبد الواد ومحاصرتها يُعلم فيه ملك أراغون بترو الرّابع الذي خلف أباه ألفونس الرّابع بموافقته على معاهدة الصّلح التي عقدها السّلطان يوسف أبو الحجّاج ملك غرناطة وحليف السّلطان عليّ بن سعيد مع بترو الرّابع ملك أراغون يوم 15 صفر من سنة 746هـ الموافق لـ 17 جوان من سنة 1345م.

- نص الرسالة

يُعْلَمُ منْ يَقِفُ على هذا المَكْتُوب الكريم أنَا عبدُ اللّه عليٌّ أميرُ المُسْلمين ابنُ مَوْلانا أمير المُسْلمين أبي سعيد ابْن مَوْلانا أمير المُسْلمين أبي يُوسُف بْن عبْد الحقِّ سُلْطان مرّاكش وفاس وسجلْماسة ودرْعة وأسْفي وأزْمور وسلا ومكْناسة وطنْجة وسبْتة وتلمْسان ووهْران وحنين[1] ومليانة والمديدة[2] والجزائر[3] وجبل الفتْح[4] ورنْدة. لمّا وصلنا كتابُ محلّ ولدنا السُّلْطان الأسْنى المُرفّع أبي الحجّاج صاحب غرْناطة وما إليْهما من البلاد الأنْدلسيّة

(1) علي بن السلطان أبي سعيد: هو السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد المريني

(1) في الأصل: هنين [كذا].
(2) في الأصل: المدية [كذا].
(3) في الأصل: الجزاير [كذا].
(4) أرسل الكتاب بعد فتحه لجبل طارق ورندة.

(5) محل ولدنا: هو يقصد ولده، وهو السلطان يوسف أبو الحجاج بن الأحمر حليف السلطان المريني علي أبي الحسن وذلك بعد إستيلاء ملك قشتالة على طريف وانهزام المسلمين بها سنة 741 هـ وسيطرة النصارى على الجزيرة الخضراء وخروج المسلمين منه إلى المغرب سنة 743 هـ وكانت فاطمة الحفصية زوجة السلطان أبي الحسن قتلت بمعركة طريف.

صُحْبة رسُوله القائد[1] المُكرّم عليّ بْن كماشة، بطلبُ منّا إمْضاء ما عقدهُ من الصُّلْح على يديْ رسُوله عليّ المذْكُور مع السُّلْطان المُكرّم الأثير دُون بطْره[2] سُلْطان أراغون وما إليْه من البلاد والجُزُر على بلاد السُّلْطانيْن المذْكُوريْن وبلادنا باسْعافنا بالإذْن في ذلك لمحلّ ولدنا المذْكُور. وقفْنا على مضْمُون[3] العقْد المذْكُور فأنْعمْنا بإمْضاء الصُّلْح المُسمّى المُنْعقد على بلادنا الشّرْقية والغرْبيّة وعلى بلاد السُّلْطانيْن المذْكُوريْن، حسْبما طلبهُ السُّلْطانُ دُونْ بطْره[4] المذْكُورُ أنْ نُصحّح ذلك العقْد بكتابنا المُضمّن الْتزام الصُّلْح المذْكُور بشُرُوطه ورُبُوطه إمْضاء

(1) في الأصل: القايد [كذا].
(2) - في الأصل: بطره. [كذا]. أي بترو
(3) في الأصل: مضمن [كذا].
(4) - أي بترو.

تامًا مُتّصلا عامًا شاملا في البرّ والبحر إلى مدة العشرة الأعوام المذكورة فيه لا ينقض رسمُهُ ولا يُنسخ حُكْمُهُ. وعلى استثناء ما استثنى تسريحه من الجانبيْن. [وعلى ما استقرّت به واستمرّت عليه العادة في ذلك ببلادنا. وأشهدنا الله عزّ وجلّ على ذلك. وكتبنا عليه خطّ يدنا الصّادرة الكتب الملتزمة به عنّا توثيقا له وإشادة بصحّته وحفظا وربطا لعهده.

وأمرْنا بكتب هذا العهد[1] المبارك به في يوم الجمعة الخامس عشر لشهر صفر المبارك من عام ستّة وأربعين وسبع مائة لهجرة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وكتب في التاريخ المؤرّخ به

(1) هذا العهد [illegible] حصل السلطان أبو الحسن مع سلطان غرناطة يوسف أبو الحجاج بن الأحمر حليفه ضد [illegible] إلى المغرب و[illegible] لنصرته على الجزيرة الخضراء كي يعوض ملك قشتالة ويعقد مع كل [illegible] صلحا ويكون بين قشتالة وأراغون وغرناطة وفاس [illegible] مع بترو الرابع ملك أراغون سنة 1345 م

ـ التّحليل

إنّ السّلطان المرينيّ عليّ بن أبي سعيد، الذي كان استولى على مملكة تلمسان وما تبعها من مراسي: وهران وحنين ومليانة والمديدة والجزائر، يعلم الملوك والسّلاطين أنّه موافق على الصّلح الذي أبرمه يوسف أبو الحجّاج صاحب غرناطة وما إليها من بلاد الأندلس بواسطة رسوله القائد عليّ بن كماشة مع ملك أراغون بترو الرّابع. ويبيّن أنّه اطّلع على مضمون العقد المنطبق على بلاد المغرب الشّرقيّة والمغربيّة ويوافق عليه بما فيه من شروط وربوط تشمل البرّ والبحر لمدّة عشر سنوات. ويذكر أنّه أمضى عليه بيده وبحضور الشّهود.

ـ التّعليق

اعتبر بترو الرّابع أنّ الحاكم الفعليّ لغرناطة ولبلاد المغرب هو السّلطان المرينيّ سلطان فاس حليف ملك

غرناطة والأندلس وهو المبرم للعقد. وطلب ضمان سلطان فاس نفسه وإمضاءه حتّى يكون العقد صحيحا وناجزًا وهو ما حصل فعلا. وتعتبر هذه الفترة للدّولة المرينيّة العهد الذّهبيّ وأوج قوّتها.

ويهتمّ هذا العقد بالأسرى النّصارى والمسلمين وما اتّفق على تسريحه منهم، وعلى كراء الأجفان التي يريدها السّلطان، والسّلم بالأندلس، وجبل طارق، حتّى يمكن له التفرّغ لردّ هجومات ملك قشتالة ألفونس. وحتّى يضمن عدم التّحالف بين القطلانيّين والقشتاليّين والإشبيليّين لاسترجاع غرناطة وجبل طارق، فالتّنافس بين الملكين النّصرانيّيْن هو الذي شجّع على إمضاء مثل هذا الصّلح والعمل على تحقيق السّلم على سواحل المغرب الأوسط - وهران - حنين - الجزائر وغيرها لتنمو التّجارة والعائدات الدّيوانيّة التي كان يطالب بها ملوك أراغون دائما.

8) - الوثيقة رقم 111

- التقديم

هذه رسالة بتاريخ 4 ربيع الثّاني من سنة 761هـ الموافق لـ 23 فيفري من سنة 1360م من سلطان تلمسان موسى بن أبي يعقوب بن زيد بن أبي زكّرياء بن أبي يحيى يغمراسن بن زيّان إلى ملك أراغون بترو الرّابع، تخصّ قطع بعض القطلانيّين في مرسى وهران وإرساله سفراء عنه لإيجاد حلّ للمشكل وعقد صلح معه ومسائل سرّيّة أخرى. وقد كان بنو عبد الواد استرجعوا ملكهم بتلمسان من المرينيّين بعد أن استولى عليها أبو الحسن السّلطان المرينيّ العظيم: والمتمثّل في كامل بلدان المغرب الأقصى والأوسط والأدنى الذي كان تحت سلطته في آخر أيّامه. فبعد أن عاد من إفريقيّة ومنع أهل بجاية عنه الماء، وغرقت أجفانه في البحر ونجا بنفسه ثمّ مرض في الطّريق وثار عليه ابنه محاولا الاستبداد بالسّلطة.

- نصّ الرّسالة

مِنْ عبْد اللّه مُوسى أمير المُسْلمين المُتوكّل على ربِّ العالمين ابْن الأمير أبي يعْقُوب ابْن الأمير أبي زيْد ابْن الأمير أبي زكريّاء ابْن مولانا أمير المُسْلمين أبي يحْيى يغْمُراسن بْن زيّان أدام اللّهُ لهُ عزًّا باهر الأنْوار ونصْرًا عاليَ المَنار وسعْدًا رفيع المِقْدار إلى السُّلْطان الأعزّ الأمْنع المُكرّم المُرفّع المعظّم المُبجّل المُوثر المرْعيّ الأحْفل الأنْوه الهُمام البطل الأشْهر الأخْطر ملك بني الإفْرنْج سُلْطان أراغُون وبلنْسية وميورقة وسرْدانية وقُورْسغة وقُمْت برْشلُونة وقُمْت الرُّسْليُون وقُمْت سرْديانة دُنْ بيدْرُو أسْعدهُ اللّهُ برضاهُ وأرْشدهُ إلى سبيل هُداهُ وأكْرمهُ بتقْواهُ.

أمّا بعْدُ. فإنّا كتبْناهُ إليْكُمْ كتب اللّهُ لكُمْ هداية تُبْلغُ نيْل الأمل والآمال وكرامة تصْحبُكُمْ في كُلّ

حال. منْ حضْرتنا العليّة[1] بتلمْسان المحْروسة ونحْنُ نحْمدُ اللّه الّذي لا شيْء كمثْله ونلْجأُ إليْه في أمْرنا كُلّه ونسْألُهُ أنْ يُوزعنا شُكْر إحْسانه وفضْله. وعنْدنا لجانبكُمْ المُرفّع تكْرمةٌ نسْتوْفيها ورعايةٌ ننْتهي إلى الغايات فيها. وعلْمنا بمحلّكمْ الشّهير ومكانكمْ الخطير يسْتدْعي الزّيادة منْ ذلك ويقْضيها وإلى هذا أرْشدكمْ اللّهُ لأحْسن المذاهب ووالى لكُمُ الخيْرَ المُتتابعَ المُتعاقِبَ.

فإنّا لمْ نزلْ نمْنحُ منْ وصل منْ جهاتكمْ وانْخرط في سلْك طاعتكمْ من التُّجّار المُتردّدين وغيْرهمْ منْ ذوي الحاجات أجْمعين ونُوسعُهُمْ إحْسانا وإنْعاما ونُيسّرُ عليْهمْ في جميع مطالبهمْ وجُمْلة مآربهمْ

(1) استعاد بنو عبد الواد تلمسان من المرينيّين في آخر أيّام السّلطان أبو الحسن بعد ثورة ابنه أبي عنان عليه ورجوعه من تونس ومرضه في الطّريق.

إجْمالاً وإكْراماً. ولَمْ نُضيِّقْ علَيْهِمْ قطُّ في جميع ما أرادُوا أنْ يُوسِقُوهُ لِبلادِهِمْ ويحْمِلُوهُ في صدْرِهِمْ وإيرادِهِمْ[1] منْ زرْعٍ وغيْرِهِ من الأُمُورِ الّتي يقْضُونَ[2] منْها الوطر ونرْتَكِبُ فيها في دِينِنا الخطرَ مُرافقةً لَهُمْ. فيه أرجع إليهم وتوْسِعةً في كلِّ الأحْوال عليْهِمْ. ومع هذا فقدْ عمدَتْ طايفةٌ من القطْلانِيِّين في أجْفان مُعدِّين إلى مرْسانا الشّهير مرْسى وهْران المحْرُوسةِ الكبير، وحملُوا منْهُ على جهةِ العدْوان والجُرْأةِ والإقْدام وهتكُوا حُرْمةَ السَّلْطنة وحقَّ الإسْلام جفْناً موْسُوقاً بالزّرْعِ وغيْرِهِ للتُّجّار الأنْدلُسِيِّين كانُوا أرادُوا الوُجْهَ بِهِ إلى بلاد المُسْلمين، واسْتوْلُوا على الجفْن بما فيه. وذكر لنا

(1) المقصود بذلك التّصدير والتّوريد.

(2) في الأصل : التي يقضوا منها [كذا].

أنّهُمْ كلّهُمْ الّذين حملُوا الزّرْع في القرْقُورة المعْرُوفة بالجي[1] القطْلانيّ، بعْدما وصل إلى بلادكُمْ توجّهَ تلْقاء ما ذكرْناهُ لكُمْ.

فلمّا رأيْنا أنّ هذه النّازلة وقعتْ وأحْوالُ منْ يرِدُ علَيْنا بالأجْفان تشتّتتْ وتشعّبتْ[2] وجّهْنا لكُمْ الآنَ خديمنا الحظيَّ لديْنا الشّيْخ المُكرّم المرْعيّ الوجيه الحظيَّ المُوقّر المُحْرم الأفْضل الأكْمل الأمْجد أبا عبْد اللّه مُحمّد بْن الشّيْخ المُكرّم المرْعيّ الوجيه الحظيّ المبْرُور المُوقّر المرْحُوم المُعمّر أبي الزّبيْر طلْحة الباتلْشي ـــ حملهُ اللّهُ تعالى على كاهل السّلامة وبلّغهُ الأمْن والأمان في حاليْ المقرّ والإقامة ووالى لهُ الخيْر ووصل لهُ الكرامة ـــ

(1) الجي: جفن سريع خفيف.

(2) في الأصل: تشتت وتسعّبت. [كذا].

وأَوْدعْناهُ ما يُنْهيه إلَيْكُمْ منْ مقاصد الإكْرام والبرّ المُوفَّر الأقْسام ليُخاطبكُمْ بهذه الأحْوال ويُطالعكُمْ بما لكُمْ عنْدنا من القبُول والإقْبال. علْما بأنَّ ذلك يسْتنْزلُ منْكُمْ منْزلة المسرّة ويرُدُّ عنْكُمْ ما يُكافئُ[1] إنْ شاء اللّهُ عنْهُ بموْصُول الإكْرام والمبرَّة. وحملْناهُ منْ معْنى الصُّلْح بيْننا وبيْنكُمْ ما يُلْقيه إنْ شاء اللّهُ مُشافهة إليْكُمْ ومُحاولة إبْرامه والمُفاوضة في عقْده وإحْكامه وأردْنا منْكُمْ العناية بأمْره. وأنْ تعاملُوهُ ما تُشْكرُون على بذْله وما يكُونُ في ذلك من المصْلحة لنا ولكُمْ فشيْءٌ لا يخْفى عليْكُمْ ولا يغيبُ عنْكُمْ فلْتتلقُّوا ذلك بحقّه محْمُولا على صحّة الحقّ وصدْقه.

(1) في الأصل: يكافى [كذا].

وكُلُّ ما يرِدُ منْ جهتكُمْ فواردٌ على البرّ والتّكْرُمَة فَننْتَهي فيه إلَى الغاية المُتمّمة ورأيْنا أرْشدكُمْ اللّهُ تعالى وهداكُمْ ووفّقكُمْ لما يرْضى به عنْكُمْ منْ تتْميم هذا المقْصد والبُلُوغ منْهُ إلى الأمد الأبْعد. إنْ شاء اللّهُ وجّهْنا لكُمْ أيْضا صُحْبَة رسُولنا المذْكُور ما يُلْقى لكُمْ مُشافهة إنْ شاء اللّهُ معْنى هذا الكتاب ويُقرّرُ ما عنْدنا لكُمْ من الإيثار المُيَسّر الأسْبَاب. وهُوَ قايدُنا الكبيرُ المرْعيُّ الخطيرُ المُكرّمُ لديْنا المُنْقطعُ بالخدْمَة إليْنا جُوانُ[1] برْمجلْينُ القطْلانيُّ أنْجدهُ اللّهُ. فإذا انْصرف رسُولنا وقايدُنا إنْ شاء اللّهُ منْ عنْدكُمْ فنُريدُ منْكُمْ أنْ تُوجّهُوا زيادَة إلى ما تُلْقُونهُ إليْه ممّنْ تتخيّرُو[نـ]ـه[2] منْ

(1) هو قائد الحرس المسيحيّ بتلمسان.

(2) ما بين معقّفين زيادة منّا ليستقيم التّركيب

خدّامكُمْ ومَنْ خواصّ رجالكُمْ في معْنى العقْد وأحْكامه والصُّلْح ومُحاولة إبْرامه. فنحْنُ نرْتقبُ أثرهُ ونصْرفُ إليْه من العناية والرّعاية والقبُول أوْفى ذلك وأوْفرهُ. واللّهُ سُبْحانهُ وتعالى يُوفّقُ لما يُحبُّهُ ويرْضاهُ. ويُقدّمُ الخيْر والخيرة فيما قضاهُ إنْ شاءَ اللّهُ بحَوْلِ اللّهِ لاَ رَبَّ لَنَا سِوَاهُ.

وكُتب في رابع ربيع الأوّل المُبارك بلْ ربيع الآخر الذي منْ عام أحد وستّين وسبْع [مائة]. عرّفنا اللّهُ تعالى خيْرهُ وبركتهُ بمنّه وكرمه وحوْله وفضْله.

صحّ في التّاريخ.

- التّحليل

بعد التّحيّة والمبالغة كالعادة في التّبجيل والتّكريم والشّكر والمدح يُعلمُ السّلطانُ موسى الزّيّانيّ...... أنّه يُولي مبعوثيه من التّجّار وذوي الحاجات مكانةً وعنايةً واهتماما ويقضي لهم دوما حوائجهم ويلبّي رغباتهم ويسمح لهم بتصدير ما يرغبون فيه من زرع[1] وحبوب وغيره إكراما للملك واحتراما له، وإلى غير ذلك من الأمور التي يرتكبونها ويحظرها الدّين الإسلاميّ ويوسّع عليهم فيها ويغضّ الطّرف عنها.

إلاّ أنّ بعض هؤلاء القطلانيّين أغاروا في أجفان على مرسى وهران الكبير وتعمّدوا في جرأة هتك حرمة

(1) تصدير الحبوب كان محجّرا بالبلدين عادة.

السّلطنة وحقّ الإسلام. واستولوا على جفن كان موْسُوقا زرعا وبضائع أخرى لتجّار أندلسيّين كانوا يتأهّبون للذّهاب به إلى بلاد الإسلام الأخرى. وذكر لـه أنّهم لم يكتفوا بالاستيلاء على الجفن بما فيه فحسب بل حملوا الزّرع في القرقورة Caracca المعروفة بالجي القطلانيّ وتوجّهوا بها عند وصولهم مباشرة إلى أراغون بلد الملك.

ويشرح لـه أنّ الأجفان التي ترد على تلمسان أصبحت مهدّدة. لذلك وجّه له أحدَ المقرّبين لديه هو أبو عبد الله الباتشلي ابن الوزير الشّيخ أبي الزّبير طلحة الباتشليمي وحمّله مسائل سرّيّة ليلقيها إليه وينظر فيها معه، إلى جانب بنود الصّلح التي يقترح النّظر فيها والموافقة عليها وإبرام العقد الذي يشملها وبه جميع ما يرضيه ويخدم قصده.

ويُعلمُه أنّه لإرضائه وإكرامه أرسل لـه كذلك مع سفيره المذكور رسولا قطلانيّا هو جوان برمجلين القطلانيّ قائد حرسه القطلاني الذي كان اقترحه بترو الرّابع نفسه ويقترح عليه إرسال من يثق فيه من رجالاته لإمضاء عقد الصّلح معه حسب البنود التي يقترحها. ويؤكّد لـه أنّ هذا الرّسول سيلقى التّبجيل والإكرام والعناية والرّعاية.

- التّعليق

نستنتج من هذا الكتاب جدوى القطع في العلاقات القطلانيّة التّلمسانيّة ودوره في إخضاع العدوّ أو الطّرف الآخر. وما يجعله يقبل اشتراء السّلم والصّلح تجنّبا للحرب ومحافظة على الأمن الذي تحتاجه العلاقات التّجاريّة.

ونرى قيمة الحبوب في هذه العلاقات فأراغون تمنع تصديرها لبلاد الإسلام وتحاول الحصول عليها بشتّى الطّرق. وهي تلجأ إلى القطع للاستيلاء على الأجفان المحمّلة حبوبا وزرعا.

وفي الختام تؤكّد لنا هذه الرّسالة أنّ ملك أراغون وصل إلى هدفه المتمثّل في إجبار سلطان تلمسان على طلب الحصول على السّلم واشترائها مقابل الدّنانير الذّهبيّة أو قبول دفع الإيتاءات من الدّيوانة التّلمسانيّة.

والملاحظ أنّ تلمسان رفضت هذه السّياسة دائما. وهي نفسها مكرهة على قبول شروط بترو وطلب الصّلح للأخطار التي كانت تهدّدها من قبل الحفصيّين والمرينيّين وللفتن الدّاخليّة ومحاولات بعض الأمراء الزّيانيّين الاستقلال عنها بمليانة والجزائر مثلا. وهذا الوضع إلى جانب القطع فرض عليها قبول الشّروط المقترحة وإمضاء العقد بل المبادرة بالمطالبة به بعد أن كانت رفضته مرّات عديدة.

9) ـ الوثيقة رقم 113

ـ التّقديم

هذا الكتاب بتاريخ 23 صفر الخير من سنة 764هـ الموافق لـ 11 ديسمبر من سنة 1362م وجّهه موسى بن أبي يعقوب من تلمسان بعد أن استرجعها بنو عبد الواد وركّزوا فيها ملكهم الزّيّانيّ من جديد إثر هلاك الخليفة المرينيّ السّلطان أبي الحسن وثورة ابنه أبي عنان عليه وهو بإفريقيّة، ثمّ تولّيه العهد برضاه وبعد عفوه عنه وهو في حالة مرض. وقد عاد من إفريقيّة بعد ثورة القيروان فبجاية وتلمسان عليه. وقد كان بسط نفوذه على كامل بلدان المغرب أكثر من عشرين سنة، توحّدت فيها الأندلس وكلّ البلاد المغاربيّة وتوازن النّفوذ الإسلاميّ مع السّلطة النّصرانيّة بقطلانية وإسبانيا وإيطاليا.

ولقد كان بترو الرّابع أرسل رسوله "فرانسيس سكوسطة للسّلطان الزّيّانيّ مع كتاب مهين وشروط خاصّة بالصّلح.

- نصّ الرّسالة

بِسْمِ اللَّه الرّحْمان الرّحيم وسلامٌ على عبادِه الّذين اصْطفى. وحسْبُنا اللَّهُ ونعْم الوكيل.

منْ عبْد اللَّهِ مُوسى أمير المُسْلمين المُتوكّل على ربّ العالَمين ابن موْلانا الأمير أبي يعْقُوب ابْن موْلانا الأمير أبي زيْد ابْن موْلانا الأمير أبي زكريّاء ابْن موْلانا أمير المُسْلمين أبي يحْيى يغْمُراسن[1] ابْن زيّان أيّدهُ اللَّهُ بنصْره وأمدّهُ بمعُونتهِ ويُسْره إلى السُلْطان الأجلّ الوجيه الحظيّ المُوقّر المُعظّم المُبجّل الهُمام البطل الشّهير الخطير سُلْطان أراغُون

(1) مؤسّس دولة بني عبد الوادْ بتلمسان. نجد في الوثيقة الأصليّة التي بالقطلانيّة سلطان مرّاكش. والصّحيح هو سلطان تلمسان.

وبلنْسِيَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَمَيُورْقَةَ وَقُنْتَ[1] بَرْشلُونةَ وقُنْت الرُّسَلْيُون وقُنْت سَرْدانية دُون بيطْرُو[2] أسْعدهُ اللَّهُ برضَاهُ وسلَك به سبيل هُداهُ وأكْرمهُ بتقْواهُ. سلامٌ على منْ اتّبعَ الهُدَى.

أمّا بعْدُ، فإنّا كتبْناهُ إليْكُمْ كتب اللّهُ لكُمْ هداية تُبْلغُكُمْ نيْل الأمل والآمال وعناية منْ لدُنْه تصْحبُكُمْ في كُلّ الأحْوال وسعادة تُقْضى لكُمْ بسعادة العُقْ[ـبـ]ـى[3] والمآل. منْ حضْرتنا العَليّة تلمْسان حرسها اللّهُ تعالى. وَنحنُ نحْمَدُ اللّه الّذي لا شيْء كمثْله ونلْجأُ إليْه في أمْـ[ـر]نا كُلّه ونتوكّلُ عليْه ونبْرءُ من الحوْل والقُوّة

(1) في الأصل: قمت [كذا].

(2) في الأصل: دون بطروا [كذا]. المقصود الملك بترو.

(3) في النّصّ الأصليّ: العقى [كذا]. والمقصود العُقْبى وما بين معقّفين زيادة منّا ليستقيم التّركيب.

إليْه ونسْألهُ جلّ وعلا أنْ يُوزعنا شُكْر إحْسانه وفضْله بمنّه وطوْله. ولكُمْ عنْدنا من البرّ بكُم والإكْرام لكُمْ وتجْديد الرّعاية والعناية قِبَلكُمْ ما يُبلّغكُمْ أملكُمْ إنْ شاء اللّهُ لا ربّ سواهُ، وإلى هذا أرْشدكُمْ اللّهُ لأحْسن المذاهب ووالى لكُمْ الخيْر المُتتابع المُتعاقب.

فإنّهُ وَصَلَ كتابُكُمْ وَعَقْدُ الصُّلْح الّذي وَجّهْتُمْ إليْنا صُحْبة رسُولكُمْ الفارس الزّعيم الأجدّ الأنْصح إليْكُمْ وَهُوَ فَرَنْسيس [سَـ]ـقُوسْطَة[1] أكْرمهُ اللّهُ بتقْواهُ وأرْشدهُ وهداهُ. وتلا عقْد الصُّلْح الذي وجّهْتُمْ

(1) في الأصل فرنصيص قوسطة [كذا]. وما بين معقّفين زيادة منّا ليستقيم الاسم العلم.

بسلكُمْ صُحْبَةَ رَسُولكُمْ. فَإنَّكُمْ كَتَبْتُمْ فيه[1]. واسْتقْريْنا منْ لفْظه ومعانيه ما لا يليقُ بذي المُلْك الرّفيع الخطر المعْلُوم المُقدّر أنْ يُخاطب بمثْله المُلُوك الذين لهُمْ المكانةُ المكينةُ والمرْتبةُ العليّةُ القويّةُ المتينةُ. وترى رسُولكُمْ يُبيّنُ لكُمْ ما في ذلكُمْ إنْ شاء اللّهُ.

وأمّا ما ذكرْتُمُوهُ عنْ قضيّة سلف المال منّا إليْكُمْ لقضاء مآربكُمْ ومطالبكُمْ فمقامُنا هذا والحمْدُ للّه كفيلٌ ببُلُوغ آمالكُمْ وصلاح أحْوالكُمْ والّذي عنْدنا أيْضًا في ذَلِكُمْ يُلْقِيهِ إلَيْكُمْ رَسُولُكُمْ.

وأمّا ما ذكرهُ لنا رسُولكُمْ عنْكُمْ منْ كوْنكُمْ طلبْتُمْ

(1) التّركيب غير مستقيم والمقصود أنّ السّلطان يعتب منك أراغون

مُعاداتنا النَّصارى[1] الفنْشيّين، فرسُولُكُمْ يُبيّنْ لَكُمْ ذلِك أتمّ تبْيين حسْبما ألقيْناهُ إليْهِ وبيّنّاهُ عليْه.

وأمّا قضيّةُ النّصارى الذين كانُوا أخذُوا في الأجْفان وخَرَجُوا بمرْسانا هُنين[2] المحْرُوسة حين وقع بهمْ الغلَبُ. ولجؤُوا إليْنا بذلك السّبب وهرب منْهُمْ منْ هرَبَ. وتكرّر منْكُمْ في شأْنهمْ الكتْبُ ولحَحْتُمْ[3] في الطّلَب. فحين جاءنا رسُولُكُمْ الأوّلُ طالبا لهُمْ خلّينا سبيلهُمْ وسرّحْنا[4] جميعهُمْ، على أنْ يتوجّه رسُولُكُمْ معهُمْ. فلمّا سرّحْناهُمْ ورأوْا أنّا

(1) هنالك تنافس وعداوة بين بترو وملك قشتالة.

(2) في الأصل: هنين [كذا]: حنين.

(3) في الأصل: ولحجتم [كذا]: ألححتم.

(4) - سرّحنا: أطلقنا سراح الأسرى.

صرفْناهُمْ وأخذْنا لهُمْ الخيْل التّي كُنّا أعْطيْناهُمْ. امْتنع عن الجواز أكْثرُهُمْ واخْتارُوا الإقامة، وطلبُوا منّا الخدْمة المُسْتدامة. فإنّهُمْ كانُوا تحْت رعْي وكرامة برضى منْهُمْ وطيب نفْسٍ واخْتيار منْ غيْر ضرر يلْحقُهُمْ[1] في ذلك ولاَ أضْرار. فرددْنا عليْهمْ خيْلهُمْ وأرْجعْناهُمْ إلى خدْمتهمْ وأجْريْنا عليْهمْ مُرتّباتهمْ وزِدْنَاهُمْ[2] على عادتهمْ. وأمّا الذين أرادُوا الجواز منْهُمْ إلى بلادهمْ فهُمْ نحْوُ الثّلاثين أوْ ما يقْرُبُ منْ عددهمْ. فلمّا جاءُوا على الانْفصال وأخذُوا في الرّحال إلاّ[3] وبلغنا أنّ المُسْلمين من

(1) في الأصل: ضرر تلحقهم [كذا].

(2) في الأصل: زناهم [كذا]. ولعلّ المقصود أبقينا على عاداتهم وطقوسهم.

(3) في الأصل: إلاّ و... [كذا]: إذ.

خُدّامنا وبلادنَا أَخَذُوا منْ مراسينا هُنيْـن[1] ووهْـران وَمُسْتَغانم على جهـة التَعـدّي والقهْـر والغلـب والمُجاهَرة بالفِتْنة والحرْب. بعْد ما كُنْتُمْ أَنْتُمْ كتبْتُمْ رسْم الصُّلْح الّذي بهِ إليْنا وجّهْتُـمْ، أمْسكْنا نحْـنُ عنْ ذلـك هـؤلاء الذيـن أرادُوا الجـواز إلـى هنـالك حتّى تُسرّحُوا[2] أنْتُمْ أولئك المأْخوذين وتضْربُوا على أيْدي المُعْتدين والمُفْسـدين وتُعـاقبُوا الظّـالمين فـإذا سرّحْتُمْ أولئكُـمْ نُسـرّحْ[3] نحْنُ هـؤلاء لَكُـمْ. عمـلا بمُقْتضى رسْم الصُّلْح الذي أشْهدْتُمْ على أنْفُسكُمْ به

(1) في الأصل: هنين [كذا]: حنين.

(2) سرّح: أطلق سراح الأسرى.

(3) في الأصل: نسرّحوا نحن [كذا].

والْتزمْتُمْ العمل بحسْبه ووجّهْتُمْ رسُولكُمْ فرنْسيس[1] بسببه.

وأمّا ما ذكرْتُمُوهُ لنا مـن الحوائج الّتي كـانتْ أُخذتْ لمتّيُو مرْسيط. فحـين وصـل الوكيـلُ الّـذي وجّهتْ زوْجتُـهُ إلـى هنـا. [فقدْ][2] أوْقفْنـاهُ بيْـن أيْدينا وسمعْنا قوْلهُ وأحْضرْنا خصْمهُ لهُ وأمرْنـاهُ أنْ يصل معهُ إلى قاضي المُسْلمين ليحْكُم بيْنـهُ وبيْـن خصْمه بالشّرْع والحقّ الواضح المُسْتبين. فإنّ الشّرْع عنْدنا ينْقادُ إليْه الصّغيرُ والكبيرُ والرّفيعُ والوضيـعُ والغنيُّ والفقيرُ وسائرُ النّاس في الحقّ عنْدهُ سواءٌ[3]

(1) في الأصل: فرنصيص [كذا]: فرنسيس.

(2) ما بين معقّفين زيادة منّا ليستقيم التّركيب.

(3) في الأصل: سوا [كذا].

يسْلُكْ سبيل الهُدى ويطْرَحْ الهوى(1). فأبى الوكيلُ منْ ذلك وامْتنع مِنْ أنْ يقف مع غريمه للشَّرْع والحقُّ أحقُّ أنْ يُتّبع. وكان ذلك كلُّهُ بحضْر[ة](2) رَسُولِكُمْ. وَهُوَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ لَكُمْ.

والّذي عنْدنا في أحْوال الصُّلْح وفي غيْره يُلْقيه إليْكُمْ إنْ شاء اللّهُ رَسُولُكُمْ ويعْرضُهُ عليْكُمْ بيْن يديْكُمْ بحوْل الله. واللّهُ سُبْحانهُ يهْديكُمْ إلى سواء السَّبيل إنَّهُ بذَلِكَ كَفِيلٌ.

كُتب في ثالث عشْرين صفر منْ عام أرْبعة وستّين وسبْعماية بمُوافقة الحادي عشر منْ دجنْبر

(1) في الأصل: الهواء [كذا].

(2) في الأصل بحضر [كذا]

عرّف اللّهُ خيْرها(1) بمنّه وكرمه. وقدْ وجّهْنا لكُمْ صُحْبة رسُولكُمْ رسْما مشْهودا مُخاطبا بعقْد الصُّلح المُبارك معكُمْ وصُحْبةَ رسُولكُمْ ليُوصلهُ إليكُمْ إنْ شاء اللّهُ. بلْ يصلُكُمْ كتابُنا هذا ورسْمُ الصُّلْح المُبارك الـ[ذي] [ع‍]قدْنا وأشْهدْنا به على أنْفُسنا صُحْبة خديمنا الأجدّ الأنْهض على القناع سلّمهُ اللّهُ. فاصْرفُوا معهُ رسْم صُلْحكُمْ والأسْرى من المُسْلمين الّذين ذكرْناهُمْ لكُمْ وتوجّهُوا منْ عندكُمْ منْ خُدّامكُمْ وثقاتكُمْ منْ يقْبضُ منْ هُنا من النّصارى الّذين أمْسكْناهُمْ في أولئكُمْ. ويصلُ بهمْ إليْكُمْ إنْ شاء اللّهُ لاَ رَبَّ سِوَاهُ.

صَحَّ فِي التَّارِيخِ.

(1) في الأصل خيرهم [كذا كما للمحقق] والأشهر جمع مؤنث خيرها

- التّحليل

تشير هذه الرّسالة إلى توتّر العلاقة بين بترو الرّابع والسّلطان الزّيّانيّ وإلى غضب ملك أراغون لرفض موسى بن يعقوب السّلطان تسريح الأسرى النّصارى والاستجابة لشروطه في الرّسالة المبعوثة سنة 1300م كما رأينا آنفا. فوجّه إليه رسولا هو منيو مارسات يحمل كتابا للسّلطان فيه إهانة له ومساس بكرامته، وقد لامه عليه السّلطان موسى وبيّن له أنّ مثل هذا التّصرّف ليس من أخلاق الملوك وشيمهم. يقول له : "فإنّنا استقْرَيْنا منْ لفظه ومعانيه ما لا يليقُ بالملك الرّفيع المُقدَّر أنْ يُخاطب بمثله المُلوك الذين لهُمْ المكانةُ المكينةُ والمرْتبةُ العليّةُ القويّةُ".

وكان ملك أراغون طلب سلفةً ماليّة في رسالته هذه لقضاء مآربه وحوائجه، فبيّن له السلطان أنّه مستعدّ

للاستجابة لطلبه وتمكينه ممّا يريد على شروط سيشرحها له رسوله. وفي خصوص طلب معاداة تلمسان للفنشيّين القشتاليّين النّصارى فهو يجاريه في الأمر ويعلمه أنّ رسوله سيشرح له الموقف.

ويتعرّض إلى موضوع آخر هامّ يشير إلى العقليّة السّائدة عند الطّرفين في خصوص الأسرى والقطع، فيذكر له أنّ النّصارى الذين طالب بتسريحهم ـ وكانوا قد أُسِرُوا بمرسى حنين أثناء إغارتهم على المرسى ـ هم البادئون والعادون، قاموا بالإغارة، فغلبوا وأُسروا، فلا يمكن إخلاء سبيلهم وتسريحهم. غير أنّه مرضاة للملك واستجابة لتدخّلاته المتكرّرة فقد سمح السّلطان لجميعهم بمغادرة البلاد وركوب البحر مع رسول الملك نفسه. فرفض أكثرهم الجواز ومغادرة تلمسان وفضّلوا البقاء في خدمة السّلطان مع خيلهم ومرتّباتهم. ولم يقبل

المغادرة والمجاوزة إلاّ نفر قليل لا يتعدّون الثّلاثين شخصا سمح لهم السّلطان بالمغادرة والرّجوع إلى بلادهم. لكنّ حادثا حدث في مراسي تلمسان وحنين ووهران ومستغانم تمثّل في الإغارة عليها وأسر بعض المسلمين فتراجع عندئذ السّلطان عن سماحه لهم بالمغادرة وأمسكهم مطالبا بتطبيق شروط الصّلح المبرم، أي أن يبادر الملكُ بإطلاق سراح المسلمين المخطوفين، ويقوم السّلطان مقابل ذلك بإطلاق سراح هؤلاء الذين كان أفرج عنهم.

وطالبه كذلك بأن ينزل عقابه على المغيرين والمفسدين ويحترم بذلك رسم الصّلح الذي قرّره بنفسه والتزم بالعمل به.

وتعرّض في الآخر إلى قضيّة ماتيو مارسات وما كان حُجز له من حوائج وحمولة، فبيّن أنّه استمع إليه

بحضور خصمه والوكيل الذي أرسلته زوجته. وعرض قضيّته على قاضي المسلمين لينظر فيها حسب الشّرع، فأبى الوكيلُ أنْ يمثُل وغريمه أمام القضاء الشّرعيّ الإسلاميّ. والسّلطان يعتبر أنّ الذّنب ذنبه لأنّ الجميع: الصّغير والكبير، الغنيّ والفقير، الرّفيع والوضيع، متساوون أمام القضاء لدى المسلمين. ويخلص السّلطان في آخر رسالته إلى موضوع الصّلح وبعض المسائل الأخرى. فلقد حمّل الرّسولُ فرانسيس سكوسطة الجوابَ عليها كي يعرضها عليه مثلما كان تمّ الاتّفاق عليه. ويُعلم الملك أنّه يُوجّه له نسخةً من عقد الصّلح ممضاة وعلى الملك أن يمضي نسخته ويرسلها إلى السّلطان مع المسلمين الأسرى. إشارة إلى موافقته على هذا الصّلح.

ـ التّعليق

نستنتج من هذه الوثيقة الهامّة أمورا عديدة توضّح نوع العلاقة القائمة بين سلطان تلمسان وملوك أراغون، وأهداف هؤلاء وخططهم السّياسيّة الثّابتة:

1 ـ للملوك القطلانيّين المتعاقبين سياسة ثابتة كانت توجّههم في علاقتهم مع تلمسان تمثّلت في السّعي الدّؤوب للسّيطرة على تجارتها والتّغلغل في المملكة وابتزاز ما يتوفّر لها من ذهب.

2 ـ محاولة ملك أراغون الحصول على الأموال من تلمسان بشتّى الطّرق، إن لم يكن عن طريق الإيتاءات القمرقيّة فيكون عن طريق السّلفة. وبذلك يسترجعون ما يدفعه التّجّار القطلانيّون في الدّيوانة التّلمسانيّة.

3 ـ المراوحة بين الشّدّة واللّين: الحرب والسّلم.

القطع والأمن، القرصنة والتّجارة وما تدرّه من أرباح. والتّاج الأراغونيّ يميل إلى سياسة التّعامل التّجاريّ مع القطع للإرهاب في آن واحد.

4 ـ التجاء الطّرفين إلى القطع وأسر المسافرين والبحّارة للضّغط على الطّرف الآخر. ونلاحظ العدد الهامّ جدّا من الأسرى القطلانيّين بتلمسان.

5 ـ عدم الحصول على أمن مطلق واطمئنان تامّ حتّى في فترات الصّلح

6 ـ تميّز سلاطين تلمسان بشيء من الصّلابة والثّبات على المواقف في تعاملهم مع ملوك أراغون حتّى في فترات ضعفهم.

7 ـ تأثير التّنافس بين مختلف الملوك أو السّلاطين على العلاقة القطلانيّة ـ التّلمسانيّة وعلى مختلف التّحالفات بالمنطقة.

8 ـ تبدو رسالة ملك أراغون غريبة في لهجتها وطرقها. وكذلك الشّروط المقترحة في مثل هذا العقد المختلف تقريبا عن غيره من العقود المعهودة بين الطّرفين.

9 ـ يبدو بترو الرّابع مختلفا عن أبيه وجدّه جاقمو الثّالث الذي كان يفضّل سياسة اللّين والمرونة للوصول إلى أغراضه الامبرالية.

10°) ـ الوثيقة رقم 114

ـ التّقديم

هذه الوثيقة تمثّل عقدَ صلح لمدّة خمس سنوات بين أبي حمّو موسى بن أبي يعقوب سلطان تلمسان[1] مع بترو الرّابع ملك أراغون بتاريخ 20 صفر لسنة 764هـ الموافق لـ 18 ديسمبر من سنة 1362م.

(1) مكتوب في الوثيقة بالقطلانيّة سلطان مرّاكش وهذا خطأ فأبو حمّو الزّيّانيّ من بني عبد الواد سلطان تلمسان.

- نصّ الرّسالة

بسْم اللّه الرّحْمان الرّحيم وسلامٌ على عباده الّذين اصْطفى. وحسْبُنا اللّهُ ونعْم الوكيلُ. عليْه توَكّلْتُ وهُوَ رَبُّ العَرْش العَظِيم.

هذا كتابُ صُلْح أَسّسَتْ قواعدَهُ وحُملت مصادرُهُ ومواردُهُ وحُبي بالنُّجْح والإسْعاد والنّظر الصّالح للْعباد والبلاد مُنْشئُهُ[1] وعاقدُهُ. عقدهُ بعْد اسْتخارة اللّه سُبْحانهُ واسْترْشاده واسْتعانته واسْتنْجاده مولانا السُّلْطانُ الجليلُ الملكُ الأصيلُ الشّهيرُ الخطيرُ الكبيرُ الرّفيعُ المثيلُ الماجدُ الأثيلُ الأسْنى الهُمامُ الأوْحدُ الأطْولُ الأصْعدُ الأحْفلُ الأسْعدُ الأسْمى المثيلُ الأرْضى الخليفةُ العادلُ الطّاهرُ الكاملُ المنْصُورُ الجيُوش والقبائل الفذُّ

(1) في الأصل: منشيه [كذا].

الجلاجل المُؤيّدُ الأمْضى المُظفّرُ المُعانُ العظيمُ السُّلْطانُ الكبيرُ الجُود والإحْسان الأرْوعُ الأعْلى أميرُ المُسْلمين المُتوكّلُ على ربّ العالمين أبُو حمُّو مُوسَى بنُ الأمير الجليل الأوْحد الأرْفع الماجد الأعْلى الأصْعد الهُمام الحافل المثيل الأرْضى البطل الأمْضى الأسْعد الأسْمى الباسل الكريم الشّمائل[1] العُدّة الفضائل[2] الطّاهر الظّاهر الكبير الحظيّ المثيل المُعظّم المُوقّر المبْرُور المُقدّس أبي يعْقُوب ابن الأمير الجليل الأعزّ الأرْفع الأمْنع الأرْقى الهُمام الباسل الأمْضى الأوْحد الأسْعَد الأصْعد الأرْقى الأكْبر الأشْهر الأطْهر الأظْهر الأسْمى المُعظّم المُوقّر المُبجّل الأحْفل الأفْضل الأكْمل المُقدّس السّعيد المرْحُوم أبي زيْد ابْن الأمير الجليل الرّفيع الماجد

(1) - في الأصل: الشمايل [كذا].

(2) - في الأصل: الفضايل [كذا].

الكبير الأرْضى الأمْضى الأوْحد الخطير الهُمام البطل الباسل الأرْقى الشهير المُعظَّم الطّاهر المُوقَّر العظيم المآثر الكريم المفاخر المُقدَّس المرْحُوم أبي زكريَّاء ابْن السُّلْطان الجليل الأعْلى الأوْحد المثيل الأسْمى العامل الفاضل الأرْضى الهُمام الأرْوع الأمْضى الملك الطّاهر الكامل العَظيم الشّمائل الباذل الباسل المأثُور الفضائل المُؤيَّد المنْصُور الظّاهر مُخلّد المآثر والمفاخر المُعظَّم المُوقَّر المُقدّس أبي يحْيى يغْمراسن بْن زيّان أبْقاهُمْ اللّهُ وعرّفهُمْ سامي المراتب. وَمُلْكهُمْ عظيمُ المفاخر والمَناقب ومجْدُهُمْ الشّامخ الذّوائب[1] سائرٌ[2] ذكْرُهُ في المشارق والمغارب. وَلا زال مَقامُهُمْ الأعْلَى مَخْصُوصا من العناية الرّبّانيّة بأرْفع المَناصب عقْدا للسّلْم

(1) ـ في الأصل: الذوايب [كذا].

(2) في الأصل: ساير [كذا].

والمُصالحة مع الملك الأحْفل الأسْنى المُبجّل المُعظَّم المُوقَّر الكبير الشّهير سُلْطان أراغون وبلنْسية وميُورْقة وسرْدانية وقُورْسكة[1] وَقُنْت[2] برْشلُونة وقُنْت الرُّسّيلْيُون وقُنْت سرْدانية دُونْ بيدْرُو[3] أسْعَدَهُ اللّهُ برضاهِ وأرْشدهُ إلى سُبُل هُداهُ وأكْرمهُ بتقْواهُ حينَ وصلهُ أعزّهُ اللّهُ كتابُ السُّلْطان دُون بيدْرُو المعْلُومُ. ورسْمُ الصُّلْح المخْتُومُ الّذي عليْه صُورةُ شكْله المُتعاهدةُ المُتعارفةُ في مثْله الصّادرةُ عنْهُ المُتكرّرةُ فيه على يد رسُوله الفارس الزّعيم فَرنْسيس [سـ]ـقُوسْطة[4] على أنْ تكُون السّلْمُ بيْنهُ وبيْنهُ[5] لخمْسة أعْوام مُتوالية أوَّلُها عامُ أرْبعة

(1) المقصود: كورسكة.

(2) في الأصل: قمت [كذا]. وقد تكرّرت بنفس الكتابة.

(3) في الأصل: بيدروا [كذا]. وكذلك لاحقا. المقصود بترو.

(4) في الأصل فرنصيص قوسطة [كذا].

(5) المقصود بذلك بين السّلطان والملك.

وستّين وسبْعماية منْ شهْر صفر مـنْ العام المذْكور المؤرّخ به هذا المسْطور[1] الموافقْ من الشّهُور العجميّة لشهْر دجنْبر عرّفنا اللّهُ فيــه البركـة والخيْر على جميع ما لإيالته[2] العليّة وشملتْهُ دعْوتُهُ السّنيّة من البـلاد حاضرهـا وباديهـا وثُغُورهـا ومواسـطها وأطْرافِها. حـرس اللّـهُ جميعها وعلـى جميـع مـا للسُّلْطان دُون بيـدْرُو[3] المذْكـور أيْضـا حاضرهـا وسواحلها كثْرها وقلّها[4] لا يتعـدّى أحدُهُما على أحـدٍ ولا أهْـلُ بلـد على بلـد في حـاليْ الصّـدْر والوِرْد[5] سلْما مُحافظا عليْها من الجهتيْن محْفُوظـا عنْد الملّتيْن ومـنْ كـلا الجـانبيْن. لا يلْحـقْ إحْدى

(1) المقصود بالمسطور الصلح المكتوب المتّفق عليه
(2) الإيالة: المملكة.
(3) ـ أي بترو.
(4) المقصود: كثرتها وقلّتها.
(5) الصّدر والورد: دخول البضائع وخروجها = التّصدير والتّوريد.

النّاحيتيْن من الأُخْرى مضرّةٌ في أمْـر ولا تعدٍّ فـي سرٍّ أوْ جهْر. البرُّ والبحْرُ في ذلك سيان. والمُسـاترةُ فيهما بالأذى والمُجاهرةُ ممْنُوعان. لا غدْر فيهـا ولا إخْلال[1] بمعْنى مــنْ معانيهـا. ولا تشنُّ في مدّة المُصالحة المذْكُورة غارةٌ ولا تُدْغرُ سيّارةٌ[2]. فإنْ كان منْ جهة النّصارى فعلى السُّلْطان المذْكور تسْريحُ الأسْرى وردُّ مـا يأْخُذونهُ للمُسْلمين على جهـة النّهْب والسّلْب أو الإنْصاف من القيمة إنْ عُدمتْ العيْنُ وأعْوزتْ على الطّلب. وكذلك ما يُؤْخذُ علـى جهة الاخْتلاس منْ أمدي وغيْره. وعلى مولانا السُّلْطان أعـزّهُ اللّـهُ مثْـلُ ذلـك سواءً. وأنْ يُقابل بالوفاء وفاء. هذا بعْدَ أنْ يشيع الأمْرُ ويعْلم منْ أيْـن كان الضّررُ ومنْ هُو المُتسبّبُ بالغدْر أوْ الشّرّ.

(1) في الأصل: إحلال [كذا].
(2) تدغر سيّارة: لعل المقصود: تغدر. والسّيّارة: القافلة المحمّلة بالبضائع.

وكُلُّ ما يرْجعُ إلى هذه الدّعْوة العليّة ويدْخلُ في طاعة هذه الإيالة السّنيّة بَعْد هذا العقد المُحْكم فداخلٌ تحْت هذه المُصالحة والسّلْم وهذا الحكْم. وعلى أنَ التُّجّار الواصلين منْ إحْدى الجهتيْن إلى الأُخْرى بمتاجرهمْ ألاّ يُؤْخذ منْهُمْ إلاّ العُشُرُ. والمخْزنُ المعْلومُ في سلعهمْ لا زائد في ذلك عليْهمْ. ويُحْملُون في إقامتهمْ إذا حضرُوا وفي طريقهمْ برّا وبحْرا مهْما وردُوا أوْ صدرُوا على الحفْظ التّامّ والرّعْي الشّامل العامّ. وعلى أنّهُ إنْ انْكسر جفْنٌ لمنْ يأْتي من التُّجّار قاصدا منْ هذه الجهة أوْ منْ جهته لمرْسى منْ مراسي موْلانا أعزّهُ اللّهُ أوْ مراسيه فيُردُّ على أرْبابه جميعُ ما كان فيه. ولا سبل لأحد عليْهمْ ولا اعْتراض بوجْه من الوُجُوه لجفْنهمْ ولا إليْهمْ بلْ يُخْلى سبيلُهُمْ إلى أمْتعتهمْ وأمْوالهمْ وجفْنهمْ وسائر سلعهمْ في جميع أحْوالهمْ

إنْ شَاءَ اللّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ التَزَمَ مَوْلاَنَا السُّلْطَانُ. السُّلْطَانُ أَبُو حمُّو أعزّهُ اللّهُ هذه الشُّرُوط وأحْكم فيها العُقُود والرُّبُوط لينْعقد عليْها الصُّلْحُ الّذي تقدّمتْ المُراوضةُ فيه الْتزاما على الواجب بمُقْتضى كُلّ معْنى من معانيه. شهد على موْلانا السُّلْطان أبي حمُّو ـ أعْلى اللّهُ مقامهُ ونصر أعْلامهُ بما فيه عنْهُ ـ منْ أشْهدهُ به على نفْسه الكريمة شاملٌ ذاته والسّعْدُ المُسْعدُ مُصاحبُ قصْده وأدواته وهُو على أكْمل حالات الإشْهاد. وذلك في تاسع عشْرين صفر من عام أرْبعة وستّين وسبْعماية بمُوافقة ثامن عشر منْ شهْر دجنْبر. فيه مُلْحقٌ[1] بيْن بعْض أسْطُره على يد رسُوله فرنْسيس [سـ]ـقُوسْطة[2] صحّ منْهُ وفي

(1) في الأصل: ملحقا [كذا].

(2) في الأصل: فرنصيص قوسطة.

الإشهاد المذْكور على أنّهُ مهْما أتى جفْنٌ منْ أجْفان إحْدى الجهتيْن إلى الأُخْرى قاصدا إلى مرْساها مُلْجئا إليْها منْ عدُوّ يطْلُبُهُ في البحْر لقصْد الإذاية لهُ والضّرر فعلى أهْل ذلك المرْسى الذي يلْجأُ إليْها إعانتُهُ ورفْعُ الضّرر عنْهُ وكفّ الأيْدي العادية عليْه وحمايتُهُ بكلّ ما يُمْكنُهُمْ جُهْد اسْتطاعتهمْ إنْ شاء اللّهُ وفي تاريخه فشهد بجميعه. شهد . مُحَمَّدُ بْنُ أحْمد بْنُ علي وعبْدُ الرّحْمان بْنُ علي لطف بهمْ بمنّه . شهد . ومُحمّدُ بْنُ يوسُف بْنُ محمّد القيْسي . شهد . ومُحمّدُ بْنُ علي بْنُ أحْمد العطّبي . أعْلم باسْتقلاله أحْمدُ بنُ الحسن بْنُ سعيد.

- التّحليل

هذا العقد الذي كان تحدّث عنه السّلطان في رسالتين سابقتين للملك بترو الرّابع سنة 1360م وسنة 1361م ووقع التّمهيد له مع الرّسول فرانسيس سكوسطة يضمن الأمن للجهتين برّا وبحرا. وينصّ على أنّه لا يمكن أن يقع التّعرّض إلى تجّار البلديْن أو إلى أجفانهم بسوء ويتحتّم تقديم المساعدة لهم ولأجفانهم عندما يلتجئون إلى أحد مراسي البلديْن والبلدان التّابعة لهما. كما ينبغي بموجب هذا العقد إرجاع الأجفان والبضائع أو الأسرى الذين يتمّ التّعرّض إليهم والقبض عليهم في غارة من الغارات أو مناسبة من المناسبات. ويعمل الطّرفان على مساعدة رعايا الملكين في كلا البلدين وعدم إلحاق الأذى بهم.



5 ـ الاكتفاء بالإشارة إلى الأشخاص الذين يكونون بالأجفان عند الإغارة عليهم وتتمّ مساعدتهم ونجدتهم ثمّ إرجاعهم إلى بلادهم مع أجفانهم.

6 ـ لم ينصّ العقد على كراء الأجفان إذ كانت تلمسان قد شيّدت حوضا كبيرا بوهران لبناء أجفانها ومراكبها في عهد أبي حمّو.

7 ـ يبدو أنّ الفتن قد خدمت لضعف الدّولة المرينيّة النّسبيّ في هذه الفترة وعدم مواصلتها في مهاجمة تلمسان بعد أن استرجعها بنو عبد الواد. وتعدّدت الحروب الأهليّة بين المرينيّين أنفسهم.

نلاحظ صلابة السّلطان الزّيّانيّ وثباته على مواقفه حين لا يكون مهدّدا في الدّاخل أو من أجواره المسلمين الحفصيّين بإفريقيّة أو المرينيّين بفاس ومرّاكش. فالفتن والحروب الدّاخليّة ومطامع دول المغرب عامّة كانت

سببا في إضعاف جانب هذه الدّول ونجاح المطامع الامبراليّة القطلانيّة في النّيل منها والتّغلغل داخلها إذ كلّما كان الحكم المركزيّ قويّا وسليما بتلمسان أو تونس أو فاس أو مرّاكش كان موقف العدوّ ضعيفا وعاجزا عن تحقيق أهدافه في السّيطرة والهيمنة والابتزاز السّياسيّ والماليّ.



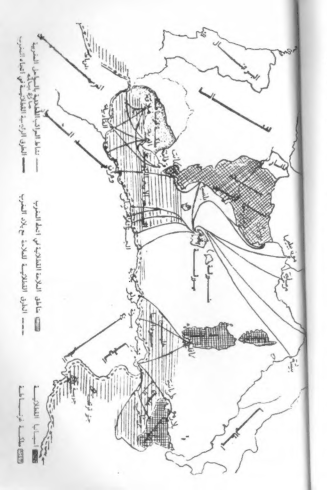
فهرس الأعلام

فهرس البلدان

Index géographique

المصادر والمراجع

- أرشيف التّاج الأراغوني
- A.C.A: Archives de la couronne d'Aragon
- المراسلة الملكيّة الدّيبلوماسيّة
- A.C.A (C.R.D): Correspondance royale diplomatique
- الأرشيف التّاريخي لميورقة
- A.H.M: Archives historiques de Majorque (Palma, Majorque)
- السّلاوي أبو العبّاس: الاستقصا[ء] لأخبار دول المغرب الأقصى
- ENNAÇIRI: El Istiksaa
- لوي دو ماس لاتري: معاهدات تخصّ علاقات المسيحيّين مع عرب إفريقيّة الشّماليّة في العصر الوسيط. باريس 1866
- Mas-Latrie (Louis de): Traités concernant les realions des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentionele au moyen- âge
- بيار فيدال: يهود الرّسيليون ـ باريس 1888
- Pierre Vidal: Juifs de Roussillon - Paris 1888
- برودال: البحر الأبيض المتوسّط
- Braudel: La Méditerranée
- ليفي بروفانسال: تاريخ إسبانيا الإسلاميّة. ج 1. باريس 1950
- Levi Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane





عمر سعيدان

* أستاذ خرّيج المعهد الصادقي ودار المعلمين العليا سنة 1960.

* باشر التدريس والتفقد والاشراف على تأطير الأساتذة وتكوينهم بدار المعلّمين العليا

* سجلّ أطروحة دكتوراه دولة حول علاقات الحفصيين باسبانيا القطلانية في القرن الرابع عشر باشراف الأستاذ شار ايمانويل دوفرك بجامعة باريس السابعة بنتتار

لـه : * مراسلة الحفصيين والقطلانيين في عهد جاكمو الثاني ملك أراغون

* علاقات اسبانيا القطلانية بالحفصيين في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر

* علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان

* علاقات اسبانيا القطلانية بالمرينيين

* علاقات القطلانيين بغرناطة وملوك بني الأحمر

* علاقات القطلانيين بمصر والملك قالوون

لـه : * فرحات حشاد بطل الكفاح الوطني والاجتماعي

* الحركة النقابية الوطنية

* حقق كتبا أدبية تراثية عديدة وله عديد المقالات الأدبية والنقدية

* نظم عديد الندوات الأدبية والفكرية الدولية

* ساهم في كثير من الندوات الفكرية الدولية

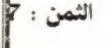
لـه : * مجموعات من قصص الأطفال

لـه : * تحت الطبع : توطئة ومقدمات

وبصدد الاعداد : * مذكرات مناضل في النصف الثاني من القرن العشرين

ISBN : 9973-25-089-3

نوفمبر-ديسمبر 2002



الثمن : 7 دنانير